حروب الكهنة

رواية

صهيب صبرنجي

حروب الكهنة
المؤلف : صهيب صبرنجي

لوحة الغلاف للفنان : أمير الحاج
تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 28663 / 2017
الترقيم الدولي : 978-977-769-211-3

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف– الدور
الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

إهداء:

إلى والديَّ..

إلى أرواح أجدادي الطاهرة..

إلى كل شخص محب للإنسانية..

كل الحكايات الموجودة في مجلداتي وفي جدران الحيطان القديمة، موجودة في الحكايات الشعبية، فيسردها أهالينا كقصص بطولية تلهم خيال الصغار والكبار.

كاتب الشّونة أونسة الخامس عشر

«يا بني! جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله ليحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء».

لقمان الحكيم

كنت أفتش عن الحقيقة وأبحث عنها كما يبحث الجائع عن طعام، ليحفظ عليها حياته وليستمد منها الغذاء والقوة، ولم أستطع أن أقبل المشكلات من غير مناقشاتها، فلقد كنت في حاجة لكي أرضي ذلك النداء الملح الذي يريد من كل إنسان أن يجتهد للوصول إلى الحقيقة الكاملة، وها أنا ذا، لا يهمني أن أكون مثلكم لا أملك شيئًا من علم ولكنني لا أريد أن أعاني ما تعانون من جهل.

سقراط

1

بعد انتصار الأنج الوثنيين الأخير على مملكة الوديا المسيحيَّة في المعركة الفاصلة بينهما، والتي دارت رحاها على مشارف أبواب العاصمة سوبا الجميلة، تقهقر الجيش الألودي إلى الجنوب من العاصمة سوبا، بقيادة جلالة الملك وأسرته، وما تبقى من وزرائه، وموظفي الدِّيوان الملكي، وجمع من كبار الشَّخصيات العامة، والتُّجار، ونفرٌ من عامة الشَّعب، وقوَّاد الجيش المنهزم في تلك الحرب الطَّاحنة ـ التي راح ضحيتها كم هائل من المقاتلين ـ وعددٌ مقدر من الجنود البواسل يحمون هذه القافلة الملكيَّة حتى تنجو بنفسها إلى منطقةٍ آمنة.

سارت القافلة طوال الليل بمحاذاة النهر في صمتٍ رهيبٍ من ألم الهزيمة، وغموض المصير الذي يكتنفها. هل يا ترى سيكون هذا المصير محزنًا أو مفرحًا ؟ سيطول أمده أو سيقصر؟، وفي

حال أن ضلوا الطريق حتى حان أجلهم، هل بإمكان التاريخ أن ينصفهم في صفحاته ويذكر سيرتهم الحسنة؟ أو سيتجاهلهم التاريخ ويقسو عليهم كما قست عليهم الحرب الملونة بالدم النازف من سواد بشرتهم..؟

مع ظهور الخيوط الأوَّلى للفجر؛ بدأت القافلة تتدحرج ببطءٍ نحو سهول الوادي الأخضر، تحت إمرة الوزير الأوَّل، الذي كان يُصدر الأوامر للجنود باستمرارٍ، للحيطة والانتباه وزيادة التَّعرُّجات نحو السُّهول بخطوات واسعة كلما تقدم بهم الوقت.

وفي منتصف نهار اليوم الثَّاني، دخلت القافلة بسلام إلى منطقة سهول الوادي الأخضر، فكانت أولى محطات التوقف لتناول الطَّعام، وأخذ قسطٍ من الرَّاحة، وعلاج المصابين بجروح فتاكة من نيران الحرب الدامية، التي خسروها في ليلة هروبهم من عاصمتهم الجميلة. فكان كُلُّ ذلك يتم في صمتٍ، ما عدا التَّوجيهات والإرشادات التي يُطلقها الوزير الأوَّل للجنود، والنفر الذين يقومون بخدمة القافلة.

وبعد مرور يومين آخرين؛ توقَّفت القافلة مرَّةً أُخرى للتزُّود بضروريات الحياة، كما تمَّ تعديلٌ طفيف في تشكيلة القافلة، التي يحرسها الجنود من الاتجاهات الأربعة. وُضِع المسنون والمرضى

والنِّساء والأطفال في وسط القافلة، وفي المقدمة ـ خلف الجنود ـ كان موقع جلالة الملك وأعوانه وكبار الشَّخصيات، أما البقية الباقية فتم توزيعهم عشوائيًا على ما تبقى من مربعات القافلة، التي سارت في اتجاه الجنوب، تحرسها النُّسور الجارحة في السَّماء، والجنود البواسل على الأرض، ثمَّ بدأت تدريجيًا تفقد بوصلتها، فارتطمت مرَّةً أُخرى بالنَّهر..

في فيافي السَّافانا الغنية؛ تحرَّك المنهزمون بعيدًا عن النَّهر خوفًا من أن تتبعهم جحافل الأنج المنتصرة فتسحقهم مرة أخرى؛ فساروا أيامًا بلياليها زحفًا على الأقدام، وعلى ظهور الدَّواب من الحمير والحصين والبغال والجمال، فتاهت عليهم الأيام والساعات، وأصبحوا لا يدرون كم من الوقت ساروا في زحفهم هذا. فتعالت هنات النساء والجرحة وصراخ الأطفال، فبدأ اليأس والإحباط يدخل في النُّفوس، عندما حكى كاتب الشُّونة الخامس عشر للتَّاجر كنكون وأصدقائه، الذين كانوا يُرافقونه في المربَّع الرَّابع من مقدمة القافلة، تفاصيل هروب أجداده من نواحي دُنْقُلَا إلى إقليم التَّكاكي، أيام حروبهم الطويلة والمريرة مع سلاطين المماليك، فأكمل حديثه قائلًا:

ـ إن الحرب اللعينة لا تترك للإنسان سوى حطام النفس، التي

تتوه في أعماقها تبحث عن الأمل بحياة جديدة، يبدو أن هذا هو قدرنا المكتوب.

كان كنكون ذا طبيعةٍ قلقةٍ وعاطفيةٍ، وأكثر إحباطًا من رفاقه الثَّلاثة الآخرين فقال:

ـ إلى متى سنظل في هذا التَّيه؟

ردَّ عليه أحد رفاقه، وهو القس أبراهام قائلًا:

ـ إنَّ الرَّب معنا، وإنَّ عنايته تحرسنا حتى نبلغ غايتنا.

وتلا عليهم آياتٍ من الإنجيل المقدس، لتُثبِّت قلوبهم، وتطرد وساوس اليأس والإحباط من نفوسهم. في تلك اللحظة؛ لم يكن رفيقهم الرَّابع الشَّيخ أجيبوس يُشاركهم الحوار، فقد كان مشغولًا بتلاوة ما يحفظه من آيات القرآن الكريم سرًا؛ فباغته التَّاجر كنكون لعلمه أنَّ الشَّيخ أجيبوس ما هو إلَّا حفيدٌ للكهنة، فقال له:

ـ متى سيهطل المطر؟

انتبه إليه الشَّيخ أجيبوس بعد حين قائلًا:

ـ عندما تتبخر حبيبات المياه، وتتصاعد إلى السَّماء مُكوِّنةً سُحبًا رماديةً كثيفةً تصطدم ببعضها، فتنزل مطرًا.

لم يكن الجواب بالنسبة إلى التَّاجر كنكون مُقنعًا، وربما كان

مُبهمًا؛ فبادره بسؤالٍ آخر:

ـ كم تُكلِّف هذه العملية المعقَّدة من الوقت؟

أجابه الشَّيخ أجيبوس في الحال قائلًا:

ـ الله أعلم.

ذكر لهم كاتب الشُّونة أونسة الخامس عشر، قائلًا:

إنَّ الحساء الملكي يتكوَّن من زوجين من الفراخ أو البط، وزوجين من الحمام، وحملًا طريًا، يُضاف إليهم كميَّةٌ من الخضار، ثمَّ يُوضعان في قدرٍ، ثمَّ يُسكب عليهما طستٌ من الماء. فيظل الحساء يغلى فوق النَّار، وتتبخر المياه بفضل ارتفاع درجة حرارة القدر، حتى تصل مستواها مقدار كوبٍ للشراب.

قاطعه التَّاجر كنكون مازحًا فقال:

ـ فيشرب الملك كوب الحساء المركَّز، وتتصاعد حبيبات المياه المتبخِّرة من القدر إلى السَّماء، فتهطل مطرًا على الشَّعب الطيب.

فضحك السَّائرون في المربع الرَّابع من مقدمة القافلة التَّائهة في جوف الأودية والسهول..

* * *

كان يتعاقب عليهم اللَّيل والنَّهار، وفصول العام الأربعة، الحاضر والماضي، وهم مازالوا يعانون في إيجاد مخرج يقودهم إلى

النهاية السعيدة. فيتذكَّر القس إبراهام عصر ذلك اليوم القائظ، عندما امتلأت ساحة كنيسة منبلي، بالمصلين الذين جاءوا من مختلف رياض العاصمة سوبا الجميلة والولايات الأخرى، يتضرَّعون للرَّب لكي يشفي لهم ملكهم الذي يعاني من آلام مرض القلب القاتل. تذكَّر آهات ودموع المصلين عندما خاطبهم الوزير الأوَّل عن حالة الملك الصِّحيَّة الحرجة، وكيف أنَّه في أمسِّ الحاجة لوقوف الشَّعب إلى جانبه، بكثرة الدُّعاء له حتى يأخذ الرب بيديه ويتم شفاؤه عاجلًا. كما يتذكَّر أيضًا أنَّ الشَّعب ظلَّ في حالة ابتهالٍ دائم لملكهم، حتى شُفي تمامًا من مرض القلب القاتل، وأنَّ الملك احتفل بشفائه مع شعبه في يوم قُدَاسٍ رائع. ذبحت فيه المواشي والطيور الداجنة، ووزعت فيه الهدايا الثمينة على الفقراء والمساكين.

سأل القس أبراهام نفسه: «ماذا يكون قد حلَّ بهذا الشَّعب الطَّيب من قِبل هؤلاء الوثنيين الأشرار؟». كانت العاصمة سوبا الجميلة وحدها من تعرف الإجابة على هذا السؤال الصعب في هذه اللحظة بالذات..

بما أن الأيام كفيلة بكشف الغموض عن الأحداث التي تجري في العوالم البعيدة عن الإنسان. همس التَّاجر كنكون في أُذن

القس أبراهام، قاطعًا عليه نتائج تخمينات ذلك السؤال الحائر في دواخله، طالبًا من نيافته أن يسمح له بأداء بعض الأناشيد الدِّينيَّة أثناء سفرهم هذا، فوافق القس أبراهام في الحال.

لم يكن التَّاجر كنكون يحفظ إلَّا الأبيات الأولى من مقاطع الأناشيد الدِّينيَّة، والأغاني العاطفيَّة والاجتماعية؛ فخلط بينهما وهو يُغني بصوتٍ حزينٍ ومخنوق، أشبه بصوت الماعز المنزليَّة، التي خرجت من مسكنها في ذات يوم، تتسكع في الطرقات الوارفة، فتقطعَّت بها السُّبل للعودة إلى مسكنها مرَّةً أخرى. لم يكن أحدٌ منهم يطرب لصوته الحزين والمخنوق في معظم الأحيان، ولكنَّه كان يُذكِّرهم بشيءٍ من الحنين، بشيءٍ من ألق الماضي الجميل، فكانوا ـ أحيانًا ـ يُردِّدون معه أواخر كلمات تلك الأبيات التي يحفظها، فيشكلون كورس متجانسًا كأنما يؤدي أغنية تراجيدية متكاملة، تحكي عن مأساة تلك الماعز الشاردة والصياد. وعندما غنَّى التَّاجر كنكون أغنية سوبا الجميلة، وبساتينها الكثيرة، ومزجها ببعض أبيات الأناشيد الدينية، شاركهم الشَّيخ أجيبوس الغناء لأوَّل مرَّة، وكان ذلك قبل أن تستقر القافلة في تلك الروابي الجميلة..

منذ أن أعلن الشَّيخ أجيبوس إسلامه توقف عن ترديد أبيات

الأناشيد المسيحيَّة إلَّا نادرًا، رغم أنَّ والده كان قِسًّا حفيدًا للكهنة، وربما لهذا السَّبب أصبح هو شيخًا، وإمام مسجد المسلمين بالعاصمة الجميلة سوبا. كان حفيد الكهنة الآخر القس أبراهام يُراقب النجوم ليلًا عساها أن تنتشلهم من هذا التَّيه الكئيب. فالنجوم بمسمياتها الكثيرة ترشد القوافل المارة عبر الزمان إلى وجهتها النهائية، فالكهنة والقساوسة والشيوخ إن تعددت مشاربهم فيدلون العباد منذ الأزل إلى الوجهة نفسها، بيد أن قافلتنا التائهة ـ منذ ليل هروبها من مضجعها ـ في لج الأودية والسهول، لم تجد لا مرشدًا ولا دليلًا، يرسو بها إلى بر الأمان..

توقفت القافلة مرَّاتٍ عديدةٍ، حتى ظنَّ الرَّاحلون أنَّهم خرجوا عن مدار كوكب الأرض، وأنَّهم الآن يسيحون على متن كوكبٍ آخر، ربما يكون أبعد الكواكب الشَّمسيَّة مسافةً عن الأرض. بدأوا يُناقشون أمر هذا التَّيه وعواقبه الوخيمة، عندما توقفت القافلة وسط عددٍ من الرَّوابي التي تكسوها الخضرة، وزهرات عبَّاد الشَّمس بأزهاره الشعاعية الكبيرة التي تدور مع الشمس أينما دارت، وتحلق الفراشات في فضاء المكان منشغلة بتلقيح الأزهار، وتجري من تحتها جداول المياه الموسمية. جلس القوم في شكل حلقاتٍ دائريَّةٍ صغيرةٍ، شكَّلت فيما بينها حلقةً دائريةً

كبيرةً، يحرسها الجنود البواسل من كُلِّ الأبعاد على مسافة عشر أذرع تقريبًا..

سرد لهم كاتب الشُّونة أونسة الخامس عشر تفاصيل حكاية اتحاد نتي(1) وأون(2) في تكوين أونتي(3) في سنين تيههم الطَّويلة. تلك الرَّمزيَّة التي تُعشعش في دواخل الذَّاكرة الجماعيَّة للسُّكان.

لم يبت الملك في أمر الاستقرار في ذلك الوادي الفسيح، وعلى ذلك انفضَّ النَّقاش، وعادت كُلُّ مجموعةٍ إلى مربعها؛ فسأل أجيبوس أونسة الخامس عشر قائلًا له:

ـ هل تظنُّ أنَّ قافلتنا هذه ستتوه سنين كما نتي عندما كانت تنتقل عبر الفضاء دون إنارةٍ، فتاهت في عتمة الليل؟.

ردَّ عليه أونسة قائلًا:

ـ بدون شك، طالما لم نُحسَّ بأنَّنا في مأمنٍ من الأنج.

ردَّ عليهم كنكون، وهو يُعطى لكُلِّ واحدٍ منهم حفنةً من التَّمر؛ فقال مازحًا:

ـ رُبَّما يكون ذلك المكان الذي يُشعرنا بالأمان هو أيضًا تاه،

---

(1) نتي - البدر ، الهلال
(2) أون - الضوء
(3) أونتي - القمر كاملا

كما أون الذي خرج خلسةً في الليل من أتون الشَّمس، فلم يجد مسكنًا يؤويه؛ فتاه في الفضاء.

أجاب أونسة، وهو يُلملم نواة التُّمور، قائلًا لهم:

ـ أجل! لابُدَّ للملك أن يتخِّذ القرار الصَّائب عاجلًا.

لم يلتفت إليهم أبراهام، وهو يتأمل السَّماء فقال:

ـ بالضبط! كما فعل مشا(1) عندما وجد أون تائهًا، فأسكنه في نتي التَّائهة؛ فاكتمل تكوينهما بعد أربعة عشر يومًا بظهور أونتي الجميلة. هكذا قضى الأصدقاء الأربعة ليلتهم الأولى في تلك الروابي، التي تكسوها الخضرة، دون أن يكون بينهم تمييز..

في صباح اليوم الثاني، أفاق كاتب الشُّونة أونسة الخامس عشر من نومه على زقزقة العصافير، فجلس تحت ظل شجرة دوم تقبع خلف إحدى الروابي الخضراء، لكي يُدوِّن تلك الأحداث التي مرت عليهم منذ أن فارقوا مدينتهم الجميلة سوبا، فكتب عن بكاء الأطفال، وهم يُحملون على الهودج في السَّاعات الأولى من الفرار، وعن نواحى النِّساء من هول الصَّدمة. لم يفُت عليه أن يكتب أسماء الشُّهداء في تلك المعركة البطولية، التي استبسل فيها جل المحاربين الألوديين ضد جيوش الأنج الجرَّارة، ودوَّن كذلك

(1) مشا - الشمس.

أسماء النِّسوة اللائي أصبحن بين عشيَّةٍ وضُحاها أرامل، وكتب عن الجرحة والمسنين الذين رفضوا ـ في بادئ الأمر ـ الخروج من مدينتهم المعشوقة، على أن يقضوا ما تبقى لهم من حياةٍ مع مخزون ذكرياتهم الجميلة، كما تمنوا أن يُدفنوا بجانب أحبتهم، قبل أن يتم إقناعهم بالالتحاق بالقافلة، وكيف أنَّ الوزير الأوَّل بذل كُلَّ طاقته في ترتيب الهروب، وأن الملكة الأم دبَّرت أمر المقتنيات واللوازم التي حُملت معهم، وأنَّها أمرت بانضمام أكبر عددٍ ممكنٍ من الرَّعايا إلى القافلة، التي تحرَّكت في جوف الليل، تتعرَّج خطواتها كما الطِّفل الذي بدأ يمشي حديثًا..

كان كنكون النشوان بنسمات الصباح الباردة، يتجول بين الروابي والأشجار ويُقلِّد العصافير في غنائه؛ فيُحاكي البلبل ثم الكروان، فمزج بين لحن الأغنية وهدهدة الطير، وهو يُغني ويترنَّم، فأُعجب أونسة الجالس تحت شجرة الدوم بأدائه، فترك مجلده وقلمه ومحبرته جانبًا، فراح يترنَّح يمينًا وشمالًا، ويُطقطق بأصابعه طربًا، ويُغني معه بهمس.

طلب أونسة من كنكون أن يأتي إليه ويجلس بجواره، وأن يحفظ أنشودة العصفور والأمير هريهور، وهي مقطوعةٌ غنائية يُغني فيها العصفور الكلمات بالتغريد، ويُغني فيها الأمير هريهور الكلمات

مع الكلكسات. حفظ كنكون الأغنية في ظرف خمس عشرة دقيقة، فكانت المرَّة الأولى التي يحفظ فيها كنكون قصيدةً كاملةً، وعندما غنَّاها مع أونسة، الذي ضبط زمن اللحن بالكلكسات، بكى كنكون كطفلٍ رضيع فقد أُمَّه للتو، فقال:

ـ إنَّ الطُّيور تحنُّ إلى أوكارها، فنحن أيضًا نحنُّو إلى وكرنا الجميل سوبا.

ربَّت أونسة على كتفه، قائلًا:

ـ إنَّ الطُّيور مهما طالت هجرتها فلابُدَّ أن تعود إلى عُشِّها، ونحنُّ كذلك مهما طال سفرنا حتما سنعود يومًا ما إلى حبنا الأبدي..

استقرت القافلة بين تلك الرَّوابي الخضراء لثلاثة أيام متتالية، ثم شدَّت رحالها مرَّة أخرى نحو المجهول، يتقدَّمها الجنود البواسل، دون أن تضرب إيقاعات النُّحاس الملكيَّة. لم تكن الطَّبيعة قاسيةً بتلك القسوة التي توجد في مناطق أخرى من المملكة، لندرة الجبال والأراضي الصَّخرية والصَّحاري؛ فكثرة الأودية الخضراء، ومجاري المياه قلَّلت من مأساويَّة الرِّحلة، فتجنَّبت القافلة الغابات الكثيفة، تفاديًا للمخاطر التي يمكن أن تحلَّ بها. بيد أنَّها عجزت عن الرُّجوع مرَّةً أخرى إلى محاذاة النَّهر الذي على ضفافه تقبع المدن والقرى النُّوبية، أو إيجاد أي قريةٍ في تلك الأودية المتصلة

ببعضها، حتى تستقر القافلة فيها، وتعلم في أي كوكبٍ هم سائرون؛ فانقطعت صلاتهم بالعالم تمامًا، وأصبحوا لا يدرون إن كان الأنج زحفوا لمدن وقرى الجنوب وضمُّوها إليهم، أم أنَّ الأنج كانت غاية طموحاتهم العاصمة سوبا الجميلة وحسب. وهل مازالت ولايات الجنوب تدين لهم بالولاء، فكانت القافلة تدور حول نفسها، وأحيانًا حول الأماكن التي مرَّت بها، فكانت كالتَّاريخ والأحداث التي تعيد نفسها، في مسيرة الكون منذ أن خُلق، كما قصص وأساطير الشُّعوب القديمة، التي يُعاد إنتاجها بمسمياتٍ مُختلفة؛ فتاهت المعاني الجميلة في أعماق الأرض، في سطو الإنسان على ممتلكات أخيه الإنسان..

جابت القافلة خطوط السَّافانا الغنيَّة شمالًا وجنوبًا، ولا تزال لم تبرح تلك المنطقة العامرة بالأودية الخلابة، ولكنها كانت تسير حتى تلك اللَّحظة في مأمنٍ، من أي مفاجأةٍ غير سارة تعترضها، وكان هذا العامل الوحيد لكسب الثِّقة في أنَّ القافلة ـ ومهما طال بها الزَّمن ـ ستصل إلى مبتغاها. هذا ما كان يُفكر به الملك تحديدًا، وجعله يُفكر جديًا في أمر استقرار القافلة، بتحديد المكان المناسب لها، بأسرع وقتٍ ممكنٍ، ثم التَّفكير في المرحلة التي تليها، فكان الملك مشغولًا بهذا الأمر كثيرًا، وخاصة عندما يرى الإحباط

الذى أصاب القوم لطول فترة الدوران في المجهول، وهكذا استطاع الملك أن يتحسس أول قرار له منذ أن بدأت رحلة التيه الطويلة..

كانت كُلُّ الأوامر والإرشادات تأتي من الوزير الأوَّل، إلَّا في هذه المرَّة التي طلب فيها الملك من القوم شكر الرَّب على نجاتهم من براثن الأنج والحيوانات المتوحشة، التي تُوجد في غابات هذه المنطقة، وأن يدعوا الرَّب ـ كذلك ـ أن يُلهمهم في وجود المكان المناسب الذي يستقرون به، وطلب من القس أبراهام أن يُصلى بهم صلاة توسل للإله الواحد الأحد، حتى يلاقوا جماعةً من قومهم، لم يصل إليهم الأنج، ليكونوا عونًا لهم في تدبير معيشتهم، حتى يقوى عودهم، ويعودون إلى مدينتهم سوبا الجميلة فاتحين. صلَّى بهم القس أبراهام لمدة ثلاثة أيام صلوات الشُّكر والتَّوسل إلى الرَّب لتحقيق أمانيهم المشروعة، فكان النَّاس من خلفه يرفعون أكفَّهم بالدعاء والبكاء للرَّب لينصرهم على كُل من عاداهم. كان يخطب فيهم القس بعد كُل صلاةٍ، ويُعطيهم جرعاتٍ إيمانيَّةٍ تحثُّهم على الثِّقة بالرَّب، وأنَّ فرجه قريب.

كان كل ذلك يحدث قبل غروب الشمس بقليل، ثم يعود النَّاس بعد غروب الشمس إلى مربعاتهم، لتناول وجبة العشاء،

ثم ينامون في المكان الذي يتواجدون فيه، فيحلم كل منهم بليلاه، إلا أن ليلاهم تذهب أدراج الرياح مع شروق الشمس، فتبدأ القافلة مرة أخرى بالدوران..

في اليوم الرابع وقبل غروب الشمس بقليل، لم يصلِ القس بالنَّاس صلاةَ الشُّكر والتَّوسل، ولكنه أعطاهم تلك الجرعاتٍ الإيمانيَّةٍ التي تحثُّهم على الثِّقة بالرَّب. ثم حدثهم الملك ـ بعد ذلك ـ عن وفائه للمملكة وحبه الجارف لشعبه، وأنه كان يبذل كل ما في وسعه من أجل النماء والرخاء في أنحاء المملكة قاطبة، وحدثهم أيضًا عن المحن التي مرَّت على أسلافهم، وكيف أنَّهم تغلبوا عليها بالصَّبر والتَّفكير السَّليم، ومن بعده يأتي الوزير الأوَّل الذي يبث فيهم روح الحماس، وبأنَّهم أحفاد الإمبراطور تهارقا، الذي انتصر على أعدائه في أحلك الظُّروف، وكيف أن هذا الجد العظيم وجنوده البواسق استطاعوا أن ينتصروا على الفرس الأقوياء في تلك الأوقات الصعبة، فقال عنهم ملك الفرس:

«لقد رأيت قومًا أشداء لم أر مثلهم قط»، وينجد كذلك هذا القائد الفذ وجيشه المحارب، سكان أورشليم المحاصرين، بدحر جيش الآشوريين الضخم من أبواب المدينة ليعودوا إلى

بابل خائبين. كانت تلك الصَّلوات والخطب لها مفعول السِّحر في تغير نفسيَّة القوم المنكسرة، الذين ظنُّوا أنَّهم سيظلُّون في هذا التيه حتى يحين أجلهم..

هرع الملك في التَّشاور مع أعوانه، بضرورة إيجاد المكان المناسب سريعًا، ومن ثم تدبر أمر اتصالهم بالعالم الخارجي، وألَّا يركنوا للصُّدفة لحالها في تحديد مصيرهم، حتى ولو كان ذلك سيؤدي إلى فنائهم، وكانت تلك الأيام هي بداية التَّحول الفعلي في مسيرة القافلة، بألَّا تُفكر في الماضي، والابتعاد أكثر عن مخالب الأنج، وعليها أن تُفكِّر في حاضرها، ومستقبلها الذي من أجله تركوا معشوقتهم الجميلة سوبا.

رأت الأم الملكة قائلة:

ـ إنَّه لابُدَّ لهذا المكان ألَّا يكون بعيدًا عن النَّهر الذي يجلب لنا الفأل الحسن، ويرشدنا ـ بوقاره ـ إلى كيفيَّة تخطي هذه الفترة الحرجة من حياتنا، وأنَّ الأرواح الطَّيبة التي تسكن فيه، ستساعدنا في نصرنا القادم.

ردَّ عليها الوزير الأوَّل، الذي أحسَّ بأنَّ قواه العقليَّة عادت مرَّةً أخرى إلى رشدها، فقال:

ـ إنَّنا رُبَّما نكون على مقربةٍ من النَّهر، في النَّواحي الجنوبيَّة من

ولاية أربجي، وعلى حدود مقاطعة(1) كرسا. تلك المنطقة التي تنتشر فيها فروع النَّهر، ومصباته، والخيران التي تجري منه إليه بعامل الأمطار والفيضان.

فأردف الوزير الأوَّل قائلًا:

ـ أيًا يكن موقعنا على هذه الأرض الشَّاسعة، فإنَّني أشتم رائحة النَّهر في مكانٍ ما. لسنا بعيدين منه.

«آه؛ رائحة النَّهر، والطَّمي، وسيقان الخروع النَّديَّة. كم أشتاق لكي أشتم هذه الرَّائحة الزَّكيَّة!»

هكذا عقَّب الملك؛ وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ثم يزفره في الهواء الطَّلق، وأردف قائلًا:

ـ أقسم بالرَّب المعبود، وبالمعشوقة سوبا رمز الخلود، أن نزحف على الأعداء، ونُذيقهم شر الهزيمة، ولو كان ذلك في بضعة سنين.

يبدو أن الملك وأعوانه سائرون في عملية التحرر، من وهم أن الأنج من خلفهم، وأن الواقع الحالي يحتم عليهم إيجاد طريقة ما، لتحقيق الهدف المنشود ألا وهو الاستقرار، ولا شيء غير الاستقرار في الوقت الراهن، إلا أن الأيام القادمة ستكشف إن كان في إمكانهم تحقيق ذلك، أم أنها مجرد أحلام يقظة لإشباع

(1) مقاطعة ، إقليم - ويوجد بها عدد من الولايات.

رغبة الوجود، في هذا الكون الفسيح، دون أن تكون لديهم الإرادة الكافية لتجعلهم يواصلون الكفاح حتى تتحقق رغبتهم، فيعودون مرة أخرى للدوران في تيههم حتى الفناء..

لم تكن حال النَّاس في القافلة في هذه اللحظة، ولا في الأيام القليلة الماضية، كما كانت عليه من قبل، بفعل تلك الصَّلوات، والخطب المتلاحقة، التي أصغوا إليها بتمعن إبان شعورهم الجماعي بالإحباط، فأدخلت الثِّقة في النُّفوس، وأشعرت الفارين بأنَّهم عائدون إلى المكان الذي فرُّوا منه؛ فجعلهم ذلك يتحمَّلون مشقَّة الأيام الأخيرة من رحلتهم، التي ظهرت فيها الجبال والتِّلال هنا وهناك، مع كثرة الغابات والمجاري المائية، مما صعَّب أمر التَّوقف والمبيت ـ ولو لليلةٍ واحدةٍ ـ في تلك الأحراش الموحشة، فكانوا يتناوبون في النَّوم على ظهور الدَّواب، وهي متحركة، ويتوقَّفون أثناء النَّهار لفتراتٍ مُتقطعةٍ، ليأخذوا ـ هم ودوابهم ـ قسطًا من الرَّاحة، ثم يواصلون السَّير. هكذا قطعوا مسافاتٍ طويلةٍ، وأزمانًا كثيرةً دون توقف..

* * *

في ذات يوم، والشَّمس تُسقط أشعتها البرونزية على امتداد البصر مُعلنة الرَّحيل، في رحلتها الكونية المعتادة منذ ملايين

السنين، فتعود من رحلتها تلك مع الساعات الأولى من الصباح البهي وهكذا دواليك. والأرض تكسوها حشائش السافانا الصفراء المشبعة بماء المطر الهاطل، وعلى السهل الممتد إلى ما نهاية الإدراك البصري، تكثر أبقار المهاة الوحشية النوبية، ذات القرون المستقيمة أو المنحنية قليلًا، والتي بها بريق عينين واسعتين، يخطف قلب من يشاهدها تركض برشاقة، إلى سحر جمال عالمها الوردي في إقليم السافانا الحالم، وفروها الأنيق الذي صنع منه خف سندريلا الجميل، يشعرك بالدفء والحنان في طبيعة متجانسة مع المخلوقات. وخور مياهٍ آتٍ من النَّهر الأخضر، يترهل بوقار في جريانه ما بين الحشائش الصفراء والتلال الصغيرة، تكاد أن تسمع خرير مائه العذب يتناغم مع أصوات الحيوانات وزغزغت العصافير، لاحت في الأفق علامة رضًا، وتحقيق أمنيةٍ طال انتظارها وقت الرَّحيل. أجاء الحظ السعيد يبتسم لهؤلاء الفارين، أم كان القدر العاثر يضحك عليهم؟ ..

أمر الملك القوم بإناخة القافلة، والمبيت في هذه البقعة النَّائية من كوكب الأرض، حتى يستريحوا من عناء سفرهم ذلك؛ فنام المتعبون حتى ظنُّوا أنَّهم ناموا قرنًا كاملًا بلا توقف ولا انقطاع، وعندما أشرقت الشَّمس تبتسم لحلول يومٍ جديدٍ من

أيام العام الجاري، في تواتر الأعوام من عام إلى عام، حتى يأتي يوم فناء هذه الدنيا ومن عليها، ركضت السَّناجب تلهو في المكان، والنَّمل يسير في خطٍ مستقيم مثل الجنود الذين يُقدِّمون عرضًا عسكريًا أُعد له منذ سنين، فمارس قاطنو السهل من مخلوقات حياتهم الطبيعية، كأن شيئًا لم يكن، كأنما لم يحل بأرضهم زوار جدد، بأشكال غريبة عليهم فتفزعهم. لم يبتَّ الملك كُليًا في أمر الاستقرار في هذه البقعة النَّائية؛ بيد أنَّه أمر ببناء زريبةٍ يستقرون بها لفترة من الزَّمن، حتى يستجمعوا قواهم العقليَّة والجسديَّة، ويفكروا مليًا فيما هم فاعلون في مقبل الأيام. لعل هؤلاء الوافدين يشعرون بالانتماء لهذه الأرض الجميلة، في وقت ما من السنين القادمة بمهل..

فرغ أجيبوس من صلاته للتَّو، عندما كان أونسة الخامس عشر يُؤدي بعض التَّمارين الرِّياضيَّة، التي تُريح الأعصاب، وتُعطي الجسد طاقةً إضافيَّةً تجعله يُحافظ على نشاطه طيلة ثلاثة أيامٍ كاملةٍ؛ فانتظره حتى يُنهي تمارينه المعتادة، ثم سأله قائلًا:

ـ امتى دخلت الديانة المسيحية إلى أراضينا؟.

ردَّ عليه أونسة، وهو يُنشِّف جسده من العرق بقطعةٍ من الدَّمور النَّاعم، من جراء تلك التَّمارين فقال:

ـ كان ذلك عندما تخلَّى أجدادنا عن دياناتهم الوثنية، واعتنقوا الديانة المسيحية موحدين.

فلاحقه أجيبوس بسؤالٍ آخر، فقال له:

ـ كيف تم ذلك؟.

فكَّر أونسة قليلًا ثمَّ أجابه قائلًا:

ـ هذا الموضوع يطول شرحه الآن. يُمكننا أن نتحدَّث فيه فيما بعد.

كان أجيبوس يُفكر في أمرٍ ما يُراوده بطرحه لهذه الأسئلة. رُبَّما يكون بعيدًا، أو رُبَّما يكون قريبًا، المهم هو يُفكِّر فيه، ويتمنَّاه أن يحدث وهو على قيد الحياة. في تلك اللحظة، مر بهما كنكون ومعه جنديان يحملان مطارقهما استعدادًا لبناء الزَّريبة، فسمع حوارهما هذا، فتذكَّر ذلك السُّؤال الذي كان يُريد أن يسأله فيما مضى من زمن لأونسة، فتوقف هو والجنديان عن السير، فصاح ينادي:

«أونسة.. أونسة».. وهو عائد نحوهما، وعندما وقف أمامهما، وجَّه سؤاله لأونسة مباشرة قائلًا:

ـ من هم هؤلاء الأنج الأشرار؟ ومن أي الديار المجهولة هبوا علينا كالريح العاتية؟

فردَّ عليه أونسة مُبتسمًا فقال:

ـ هم من انتصروا علينا في الحرب، وأصبحنا ـ نحن المنهزمون ـ تائهين في مشارق الأرض ومغاربها، فجاءوا من أرض الله الواسعة يأخذون ثائرًا قديم.

قاطعه كنكون، الذي تخلَّى قليلًا عن قلقه المستمر، بسبب تلك الخطب والصَّلوات السابقة قائلًا:

ـ هذا معلومٌ، ولكن أخبرنا من أوراقك تلك، من هم؟ ومن أين أتوا؟

أجابه أونسة قائلًا:

ـ الآن وقت العمل، فلنذهب معًا لبناء الزَّريبة ولوازمها، وعندما يحين المساء، وعلى ضوء أونتي سأروي لكم ـ من أوراقي هذه ـ حكاية الأنج، في زمن اعتناق أجدادنا الدِّيانة المسيحيَّة.

فذهبوا جميعًا إلى المكان الذي تم اختياره لبناء الزَّريبة، على أن يلتقوا في المساء لسماع تفاصيل أصل الحكاية..

كانت الولاية الجنوبية من مقاطعة سوبا، وكذلك مقاطعة كرسا وولاياتها بعيدةً عن نيران تلك الحروب التي شنها الأنج ضد مملكة الوديا، ولكنها كانت تُراقب وتتابع ما ستسفر عنه نتائج الحرب الفاصلة التي دارت رحاها بين الجيشين على تخوم العاصمة سوبا، وما حولها من المدن والقرى، وكانت ـ كذلك

ـ تُجهِّز الجيوش لإمداد العاصمة سوبا بالمقاتلين إن طال أمد الحرب، وعجز جيشهم ـ بقيادة الملك ـ إنهاء أمرها في زمنٍ وجيز. لم يخطر ببالهم بأنَّ الأنج زحفوا بجيشٍ هائلٍ، قضى على الأخضر واليابس في طريقه نحو العاصمة سوبا، وظنُّوا أنَّ جيش الأنج قد أُرهق، في حربه الطَّويلة في مقاطعة التَّكاكي، وأنَّ خطَّة المتاريس التي رُسمت له، ستجعله صيدًا سهلًا إن وصل سالمًا إلى سوبا، وظنُّوا ـ كذلك ـ أنَّ هؤلاء الأنج مُجرَّد مجموعةٍ من البدو الرعاع لا يستطيعون خوض الحروب، التي تُدار بتلك التَّكتيكات العالية، والتي تحتاج ـ أحيانًا ـ إلى نفسٍ طويلٍ، ولهذا كانوا واثقين من الانتصار. كيف لا وجيشهم يقوده الملك شخصيًا، وعلى أقل تقديرٍ طول مدة الحرب التي ستُحسم بتلك الإمدادات التي يُعدون لها..

في ظل ذلك الغرور الذي تملَّكهم، والاستخفاف الذي بنيَ على معلومات غير دقيقة، بجيش الأنج الهائل، الذي ينقضُّ على فريسته كالبرق الخاطف في الليالي الممطرة. هذا الجيش الذي يمتلك قائدًا مُحنَّكًا، ومجموعةً من السواكرة(1) القادرين على شحن جنودهم معنويًا، لخوض غمار الحرب لسنين طويلة بدون

(1) السواكرة - امراء الجيش.

توقف، وتقديم ارواحهم فداء لقضيتهم التي عاشوا من أجلها.

في أثناء هذا التَّباهي من حُكَّام وأُمراء الولايات الجنوبية في مقدرتهم الفائقة في دحر الأعداء، تطايرت الأنباء عن سقوط العاصمة سوبا في أيدي قوات الأنج، وهروب الملك وأتباعه نحو الجنوب؛ فعم النَّبأ كُلَّ الولايات الجنوبيَّة..

لم يصدق كثير من الناس تلك الأخبار من الوهلة الأولى، خاصة حُكَّام وأُمراء الولايات فكانوا يقولون إنَّ الأنج يُروِّجون لتلك الإشاعات الكاذبة لكسر شوكتهم، حتى لا يأتي إمداد المقاتلين من الجنوب، في حال طال أمد الحرب، فعملوا على تطمين الشعب وأنفسهم بأن الحرب مازالت مستمرة، وأن نهايتها حتمًا ستكون ـ بلا شك ـ بانتصارهم على هؤلاء البدو المنبهرين بتكتيكاتهم الحربية، فعاش حُكَّام وأُمراء الولايات والأهالي أوقات صعبة من الترقب والانتظار، على أمل أن يأتيهم الخبر اليقين من العاصمة سوبا، على لسان طائر المروج الخضراء، ألا وهو انتصار جيشهم بقيادة جلالة الملك، في تلك المعركة الفاصلة، في تاريخ إحدى الممالك، التي عاشت على ضفاف وادي النيل. فكانت الصدمة الكبرى بأن تلاشت كُلُّ هذه الافتراضات، عندما تأكَّد لهم الخبر الذي أصبح لا شك فيه، وهو هزيمة الجيش الألودي

في أرض المعركة، وهروب جلالة الملك وأتباعه من الباب الخلفي للعاصمة سوبا الجميلة. فحزن حُكَّام وأمراء الجنوب، وكذلك الأهالي قاطبةً حزنوا، فزرفت دموع الهزيمة..

في ظل ذلك الإحباط العام، طلب حاكم ولاية أربجي من حكام الولايات الأخرى، أن يستمر العمل على تجهيز الجيش، حتى يكونوا على أهبة الاستعداد في حال فكَّر الأنج في الزَّحف نحو الجنوب. وافق جميع الحُكَّام على ذلك الطَّلب، على أن تكون المهمَّة الأولى، هي إيجاد تلك الجماعة التَّائهة في غياهب الأرض، قبل أن يحدث لهم مكروهٌ، فتكون الطَّامة الكبرى، التي يمكن أن تكون معها بداية النهاية لمملكة الوديا وإلى الأبد، فكان الأهالي وحكام الولايات النوبية عمومًا، ومنذ فجر تكوين مجتمعاتهم المدنية، يرون في وجود رمز السلطة ـ ممثلًا في الملك ـ هو النبض الحي الذي يضخ الدماء باستمرار في دورة حياة المملكة، فتبعث من جديد وتحيا إلى أبد الآبدين. فلهذا لم يتهاون حاكم ولاية أربجي في الأمر، فسارع في البحث المضنى داخل ولايته، عن الأسرة المالكة وأتباعهم، وأرسل جنوده وعيونه لهذه المهمَّة المصيريَّة..

دخل جيش الأنج المنتصر إلى عاصمة الألوديين سوبا الجميلة،

بقيادة قائدهم الفذ رتاه، وهم منتشون بانتصارهم الباهر في المعركة الأخيرة التي خاضوها في مواجهة الجيش الألودي المنهزم، بقيادة ملكهم، وقضوا ليلة المعركة في معسكرهم الذي يقع على بعد عدة أذرع من أسوار المدينة، التي دخلوها في فجر اليوم التَّالي بأزيائهم البدويَّة البدائيَّة، وشعورهم الكثيفة، ووجوههم المتجهمة، وأجسادهم الخشنة، وأعينهم الحادة كسيوفهم والحراب التي يرتدونها، والسِّياط التي يحملونها أينما حلُّوا، فنشروا الرُّعب والهلع في نفوس الأهالي المتحضِّرين، الذين لم يستوعبوا ما حدث وجعل هؤلاء الرِّعاع يتجوَّلون في مدينتهم الجميلة، وجعلهم لا يدرون ما هو مصير ملكهم وأسرته وأعوانه، وراحوا يسألون أنفسهم أي أرضٍ أنبتت هؤلاء الوحوش، وأيُّ سُحبٍ أتت بهم إلى سماء بلدتهم الصَّافية، فهطلوا مطرًا مسمومًا يقضي على الزَّرع، والبهائم، والإنسان..

استلم القائد رتاه مقاليد المدينة، ودخل قصر الملك الهارب مع أعوانه، فلم يجد التَّاج الملكي، ولا صولجانه، ولا حتى كرسي العرش، فلم يكن هنالك أحدٌ داخل القصر الفخم، لا خدم ولا حشم يتجولون جيئةً وذهابًا بين ممرات القصر في خدمة أسيادهم، ولا حتى أسياد يحتاجون لهذه الخدمات، فاستولوا على

القصر الملكي دون أن يستأذنوا أحدًا، ثم جابوا طرقات المدينة يحملون رايتهم، التي ترفرف مع صفير رياح التغيير، على إيقاع النُّحاس، عزفوا أناشيد النَّصر، وعلا صراخهم بالتَّهليل؛ فكانوا يقفزون طربًا، ويُقلِّدون النِّسر في رقصاتهم. لم يعترض طريقهم أيَّ كائنٍ، ولا حتى عصفور صغير حلَّق أمامهم، فكان ذلك هو الأمر الواقع بالنسبة إلى سكان المدينة المجبرين على التَّأقلم معه؛ فالمنتصر هو الذي يحكم، ويفرض واقعه على المهزوم، فكان عهدهم ـ أي الأنج ـ بدايةً للوثنيَّة بشكلٍ مُختلفٍ عن عهود ما قبل المسيحيَّة..

بعد أن استقر الملك وجماعته المنهكون في تلك البقعة النائية من كوكب الأرض، وبنوا زريبتهم في شكلٍ دائري، أحاطوها بسياجٍ من الشَّوك وأعواد الأشجار اليابسة من جميع الجهات، وجعلوا لها بابًا واحدًا فقط، يحرسه عددٌ من الجنود. وأقاموا بداخلها مجموعةً من الأنقوري(1) من البروش التي كانوا يحملونها معهم. وضعوا في أنقور(2) الملك كرسي العرش، الذي حملوه معهم..

في عصر ذلك النَّهار الصَّافي كما صفاء أحلامهم، جلسوا خارج

(1) الأنقوري - الخيام .
(2) أنقور - خيمة

الزريبة، يلتفون حول ملكهم، الذي لبس زيه الملكي كاملًا، ووضع تاج الملك على رأسه، وحمل صولجانه في يده. جلسوا على بعد عدة أذرع من خور الماء، يُقسمون على العودة مرَّة أخرى إلى مدينتهم الجميلة سوبا فاتحين، فكتبوا ذلك على ظهر تمثال الخنفساء المقدَّسة، وقام القديس بقراءة بعض التَّعويذات عليها، ثم تفل ثلاثًا على ظهر الخنفساء، والتي صُنعت في عهد الملكة أمانجي شجيتو(1) من الذَّهب والياقوت الخالص، فحمل الملك الخنفساء المقدَّسة، ووضعها على ظهر خنفساء حيَّة، فسارت بها نحو خور الماء يتبعها الجميع. على حافة الخور؛ أسقطتها في الماء، فدارت الخنفساء المقدَّسة في اتجاه دوران تيار الماء دورةً كاملةً، ثم صعدت مرَّةً أخرى على ظهر الخنفساء الحيَّة، التي سارت بها في الدَّرب نفسه نحو مجلس الملك، وهناك أسقطتها أمام الملك، الذي حملها، وقلَّبها بين يديه خمس مراتٍ، ثم وضعها على ظهر الخنفساء الحيَّة، ليتكرَّر ذات المشهد سبع مرَّاتٍ، والذي بدوره سيُحدد إن كان حلمهم سيكون واقعًا أم لا. وفي المرَّة السَّابعة أُسقطت الخنفساء المقدَّسة أمام والدة الملك؛ فصاح الرِّجال بالتَّهليل، وزغاريد النِّسوة، لأنَّ ذلك يعنى أنَّ شمس ملكهم

(1) أمانجي شجيتو (باللغة النوبية) - أماني شخيتو

آتٍ، وأنَّهم حتمًا عائدون ـ يومًا ما ـ إلى مدينتهم الجميلة سوبا..

في المساء؛ جلس الأصدقاء الأربعة في وسط ساحة الزريبة يفترشون النبد(1) على الأرض، ومعهم عددٌ من الجنود والأهالي يستمعون إلى كاتب الشَّونة، وهو يروي تفاصيل أصل الحكاية.

بينما جلست الأم المقدَّسة ومن حولها عددٌ من النِّسوة، في أنقور الملك يتحدثن بتفاؤلٍ عن المستقبل، فنسجن قلادةً من خيوط الحرير، فأدخلن فيها الخنفساء المقدَّسة، وارتدتها الأم المقدَّسة حول عنقها حتى يكون الحلم قريبًا منهم.

(1) النبد - السجاد.

12

بدأت الدِّيانة المسيحيَّة بالانتشار في أرجاء المملكة شيئًا فشيئًا، وزاد اعتناق الملك لها من سرعة انتشارها؛ إذ سرعان ما تحولت المعابد إلى كنائس، وتحوَّل الكُهَّان إلى قساوسةٍ، فكان يجلب القدِّيسين والأساقف من الديار الأخرى، لترسيخ مبادئ الدِّيانة الجديدة أوساط القساوسة الجدد، فيرسخونها بدورهم على عامة الشعب، الذي لا مناص له إلا من اعتناق دين الملك المبجل، فالرعية على ذمة راعيها، والابن على دين أبيه. استمرت فترة ترسيخ الدِّين المسيحي في كافة أنحاء المملكة بُرهةً من الزَّمان، ترعاها السُّلطة الحاكمة، وتُوفِّر لها الحماية اللوجستية، والمال، والنُّفوذ. إلا أنه كانت هناك جيوبٌ مازالت باقيةً على دياناتها القديمة، تتململ هنا وهناك، تُنادي باحترام قدسيَّة أرواح الأجداد الطاهرة، في المحافظة على استمرارية دياناتهم، التي نبتت على أديم أرضهم الخصبة، مُنذ أن بدأ النِّيل يجري في

عروقهم ويرتوون منه..

عندما أُعلنت الدِّيانة المسيحيَّة ديانةً رسميَّة للمملكة؛ وراحت ديانات الأرض الخصبة السابقة في خبر كان، علت أصوات المتململين، فبدأوا بتنظيم احتجاجاتٍ مُستمرةٍ في مناطق نفوذهم، ثم أصبحت هذه الاحتجاجات ـ في أماكن متفرقة ـ عصيانًا مدنيًا، ومصادماتٍ مع الكنيسة، والبلاط الملكي بقيادة أحد أكبر كُهَّان المعبد الكبير لديانة أنجي آمن في برقيل(1)، أو الجبل المقدس كما يُسمِّيه البعض، لاحتضانه المعبد الكبير، الذي تتم فيه كُلُّ المراسيم المهمة للديانة، بما في ذلك من تنصيبٍ، ومباركةٍ للملوك الجدد، في صحن المعبد، وتنصيب كبير الكهنة في احتفال فخم، يلبس فيه وشاحًا على صدره يميز أهمية هذه الوظيفة. فكان يُمثل لديانات وادي النِّيل العتيقة ما يُمثله الفاتيكان اليوم بالنِّسبة للمسيحيَّة، ورُبَّما أخذت المسيحية هذا التَّقليد من تلك الطقوس النيلية القديمة ..

كان يُدعى الكاهن توتو، الذي اتَّخذ من المعبد الكبير في بلدة برقيل، مقرًا له ولجماعته المحتجين، فكان يستقبل فيه الأنصار من كُلِّ حدبٍ وصوبٍ؛ فكانوا يتشاورون، ويُخططون في كيفيَّة

(1) برقيل (باللغة النوبية) و تعني الجبل الأحمر - جبل البركل (باللغة العربية).

القضاء على المسيحيَّة، التي انتشرت بسرعة النَّار في الهشيم، واسترجاع ديانتهم مرَّةً أُخرى، كديانةٍ رسميَّةٍ للمملكة، فبعد أن انضم إليهم عدد لابأس به من عامة الشعب، وكهنة ومُريدي معبد أباد الإله الكبش ـ في الجنوب، وكهنة ومُريدي معبد بوتو في الواحات، قويت شوكتهم، وأصبحوا يشكلون خطرًا حقيقيًا على الكنيسة، والبلاط الملكي، وباتوا يحملون معهم دائمًا سَّوط الأنج المقدَّس، الذى كان يُستعمل ـ قبل مجيء المسيحيَّة ـ في تطهير العبد من خطاياه؛ فكان يُضرب بهذا السَّوط، كُلُّ من يرتكب المعاصي الدُّنيويَّة أو يُشكِّك في دين أنجي آمن، أو يجاهر بعصيان أوامر المعبد، ليعود إلى رشده مرة أخرى، ثم يُغسل بماء النِّيل على الملأ، في منتصف النَّهار، وهو يرتدى ملابسه الوسخة، فيترك لحاله لمدة سبع ليالٍ لا يكلم الناس ولا يختلط بهم، وبذلك يطهر الشَّخص كُلِّيًّا من الشَّر الذي سكنه؛ فبالتَّالي رمز هؤلاء المحتجون ـ بحملهم لهذا السَّوط المقدَّس، واستعمال طقوسه ـ لتطهير الدَّولة من شر المسيحيَّة، التي سكنتها كما يعتقدون..

في صداماتهم الكثيرة مع أتباع الكنيسة داخل القرى والمدن والجزر، كانوا يشنون عليهم الغارات التأديبية، ليلًا ونهارًا، وعلى حين غرة، ويفر من أمامهم الأهالي مرعوبون وهم يصيحون

لتنبيه بعضهم: «الأنج قادمون.. الأنج قادمون» فيهرب من في الطريق خوفًا من البطش إلى داره مسرعًا، وعندما يستولى هؤلاء القادمون وبالقوة، على إحدى هذه القرى أو الجزر، كانوا يطبقِّون شرعهم وقُداسهم هذا على الرَّعايا والقساوسة؛ فكانوا يجلدونهم جلدًا مُبرحًا بلا رحمة، ثم يغسلونهم في وضح النَّهار ـ وهُم شبه عراةٍ ـ بماء النِّيل حتى يطهَّروا نهائيًّا من الدِّين الجديد، ويعودوا إلى ملَّتهم مرَّةً أُخرى. فلا عذر لمن أنذر، ولا عزاء لمن تخلى عن إرث أجداده الأولين..

كانت قرية شبوة التي تتكئ على نهر النيل الخالد، لا يُثار فيها الضَّجيج؛ فالنَّاس فيها مُسالمون، ومحبون لجمال الطبيعة، وصفاء جريان النهر، ودماثة خلق الإنسان، يقضون غالب النَّهار في العمل؛ فالغالبية العظمة من المواطنين يعملون في الزِّراعة، والبقية الباقية منهم تمتهن المهن الحرفية اليدوية البسيطة، ويوجد بالقرية تاجران يسهلان على الناس مسألة البيع والشراء، وفي المساء؛ يجلس سكان كُلُّ شارعٍ في فسحةٍ صغيرةٍ أمام منازلهم يتسامرون فيها مع بعضهم حتى مُنتصف اللَّيل، فكانت للقرية كنيسةٌ صغيرةٌ، تقبع في القسم الجنوب الشرقي لناصية الفسحة الكبيرة التي تفصل بين مساكن الأهالي والأراضي الزراعية،

ولها قِسٌ واحدٌ على مشارف الخمسين من العمر، ولديها نحو أحد عشر كاهنًا التحقوا مؤخرًا بالمعارضين للكنيسة في برقيل، فكانت القرية تنحسر ما بين النِّيل غربًا، وسلسلة جبليَّة تتكوَّن من خمسة جبالٍ طويلةٍ شرقًا..

قرَّر قِس القرية حماية الكنيسة والمسيحيين الجدد من الأهالي، من غارات أتباع الكاهن توتو الشرسة، فبنى سورًا من ناحية الشِّمال، وآخر من جهة الجنوب؛ فأصبحت القرية مُحصَّنةً بشكلٍ جيدٍ. قاد خمسةٌ من كهنة القرية المعارضين للكنيسة زملاءهم في حملةٍ تهدف إلى تطهير قريتهم من وباء المسيحيَّة، وكان ذلك في شهر كيهكي (1) القارص، الذي تصل درجات الحرارة فيه إلى ما دون الصِّفر، وعند قدومهم وجدوا القرية محصنة بالكامل ، فأمروهم بفتح البوابة وإلَّا فالموت لهم لو دخلوا القرية عنوةً. طمأن القِس الأهالي بقوة تحصيناتهم؛ فقال: «لا حلَّ لهؤلاء الأنجس إلَّا الرَّحيل من أمام باب القرية المغلق بإحكام، ليعودوا من حيث أتوا، أو الموت في العراء بلسعات البرد تحت هذه الأجواء القارصة». ظلَّ المعارضون للكنسية مُتربصين بالقرية طوال النَّهار، وعندما حان المساء؛ تسلَّلت

(1) كيهك - 27/11 الى 26/12 .

مجموعةٌ منهم ـ عبر الجبال ـ إلى داخل القرية التي لم يكن لديها جيشٌ يحميها؛ فأمسكوا بحُرَّاس البوابة وقيدوهم، ثم فتحوا الباب على مصراعيه..

في صباح اليوم التَّالي استولى الأنج على القرية، دون عناء، وحكموا على القِس أن يظل عاريًا طوال اليوم داخل النَّهر، وأن يُصبَّ عليه الماء البارد بلا انقطاع أو توقف، مع الجلد المتواصل بالسَّوط المقدَّس. بعد أربع ساعاتٍ من قوة التحمل والصَّبر؛ ارتجف جسد القِس بقوةٍ حتى كاد أن يفقد وعيه؛ فصرخ بصوتٍ عالٍ: « الرَّب سينصرنا»، فضعفت له السِّياط حتى سقط في الماء كخشبةٍ بلا روح.

استمر العقاب بهذا الشَّكل لمدة ستة أيام لتطهير روح وجسد القس من شرك المسيحيَّة، وفي مساء اليوم السَّادس فارقت روح القس جسده، فكانت حالة الوفاة الوحيدة التي سُجِّلت إبان حملات المعارضين للكنيسة التطهيريَّة، فكانت مياه النِّيل العذبة وسَّوط الأنج المقدس هو سلاحهم الفتَّاك، في كل الغارات التي خاضوها ضد عدوهم اللدود، وهكذا اشتهروا بهذا الاسم ـ الأنج قادمون ـ الذي ظل عالقًا لسنوات طويلة في مخيلة الناس..

في ذات مرَّةٍ إذ هُم مُجتمعون؛ قرَّروا تطبيق مفصلة أنج على

الملك، باعتباره خائنًا للموروث الديني والثقافي، الذي خلفه الأجداد الأوائل منذ آلاف السنين الماضية، وحافظت عليه الأجيال من جيل إلى جيل، ونهلت من تعاليمه وفلسفته الأمم الأخرى، وترجمت معتقداته ورموزه إلى لغاتها فأعطتها مسميات أخرى.

فقال كاهن معبد بوتو:

ـ إن الملك متواطئ مع أفكار ذلك المدعو متى الإنجيلي، الذي جاء إلى ديارنا في زمن غابر ووهن من نواحي بيت لحم، لكي يشوش علي أهالينا معتقداتهم وسلوكهم الحضاري، ويبشر بهذا الدين الجديد والغريب على ديارنا.

فرد عليه كاهن معبد أباد قائلًا:

ـ إن المعبد الكبير لم يحس بخطورة هذا المدعو متى الإنجيلي إلا بعد أن وقعت الفأس في الرأس، فاستفاد هو من هذه الحرية ـ التي ما كان يجدها في بلاده ـ وجمع من حوله أنصارًا، فتمكنوا من نشر تعليمه بين القرى والحضر.

وافقه كاهن معبد بوتو الرأي فقال:

ـ لهذا لابد أن نقيم على هذا الملك الخائن مفصلة أنج اليوم قبل الغد.

وهي عبارةٌ عن محكمةٍ سريَّةٍ تُجرى من قِبل كبار الكهنة وأتباعهم في المعبد الكبير في برقيل يُجر إليها الملك جرًا، وغالبًا ما تكون نهايتها إدانة الملك وقتله، وبذلك تطهر روح الملك، ويطهر البلاط الملكي، وعامة الشَّعب من فعلته الشَّنيعة التي ارتكبها. أحيانًا تكون هذه المحاكمة لملوكٍ ارتكبوا إثمًا حقيقيًا، وأحيانًا أخرى تكون تصفيةً شخصية للملك من قِبل المعبد..

بعد تفكيرٍ عميق؛ رفض الكاهن الأكبر توتو هذه الفكرة جُملةً وتفصيلًا بحجة أنَّهم أصبحوا من غير نفوذٍ ولا سُلطة لهم لا على الملك ولا على الشَّعب، الذى أصبح ينحاز للكنيسة؛ وبالتَّالي سيقودهم هذا التَّصرف إلى صدامٍ مُباشرٍ مع جلالة الملك، فذكَّرهم بتلك الحادثة المؤلمة، التي وقعت من قبل لأجدادهم الكهنة، ومن اتبعهم، فسطرت كأسوأ حادثة شاهدها تاريخ المعبد.

فقال لهم:

ـ في الزمن القديم عندما أراد الكهان تطبيق مفصلة أنج على الملكة نفرين تيتي، التي أتتها معلومةٌ استخباراتيَّةٌ عن ما يحيكه الكهنة لها، فعندما أرسلوا طلب تشريفها لهم في المعبد الكبير، تعاملت معهم بدهاءٍ كما هي عادتها، واستمالت عطف

الشَّعب عليها، ودلَّلت أمراء الجيش، ومرَّرت إليهم مآرب الكهنة لاستلام السُّلطة، وتعيين كبيرهم ملكًا للبلاد بعد قتلها، وقتل أمراء الجيش، وأنَّهم الآن يدعمون تمرُّدًا في إقليم كايو. وفي الوقت نفسه؛ طمأنت الكهنة، وأخبرتهم بموعد مجيئها، فزحفت عليهم قبيل الوعد المحدد بالجيوش الجرَّارة، فقبل أن تصلهم بثلاثة ليالٍ، علموا بذلك الزَّحف الهائل، فزحفوا منها مُرتجفين، ومعهم خلقٌ كثيرٌ إلى أقاصي الأرض، ولم يعودوا إلى يومنا هذا.

ثم أردف الكاهن توتو قائلًا:

ـ إنَّ هذا ما سيحدث لنا إن نحن عادينا الملك علنًا أو علم هو بهذا الأمر.

أجابه كاهن معبد بوتو فقال:

ـ إنَّ مفصلة أنج المقصودة هنا تكون بقتل الملك مُباشرةً عن طريق شخصٍ يُرسَل لتصفيته، وإنَّ مُحاكمته أُجريت الآن غيابيًا.

ردَّ عليه توتو قائلًا:

ـ إنَّ ولي العهد مسيحيٌ أيضًا، وهو الذي سيخلف أباه في الحكم.

استرسل كاهن معبد بوتو قائلًا:

ـ عندها سنرسل إلى ولي العهد ونُخبره بأنَّ قتل الملك كان نتيجةً لحُكم مفصلة أنج، لتطهير روح الملك، والمملكة من رجز المسيحيَّة، فهذا يجعل ولي العهد يخاف ويرجع إلى صوابه.

فردَّ عليه توتو مُجددًا مخاوفه فقال:

ـ رُبَّما في هذه الحالة يشن ولي العهد حملاتٍ انتقاميَّةً ضدَّنا لقتلنا لوالده؛ فبذلك يقف الشَّعب إلى جانبه.

رأى أحد الكهنة أنَّ الأُسرة الحاكمة ـ حاليًا ـ محبوبةٌ من قِبل الشَّعب، وفي حال قتلهم الملك بهذه الصُّورة، ومعاداتهم لولي العهد، فسيجعلون الشَّعب يخاف على مصير الأسرة الحاكمة، وسينزل بكلياته لمحاربتهم.

أمَّا كاهن معبد أباد كان له رأيٌ آخر عندما قال:

ـ لابُدَّ أن نفرض وجودنا بالقوة، وأن نُعِدَّ جيشًا قويًا لمحاربة الكنيسة والدَّولة، والشَّعب ـ في النِّهاية ـ سيرضى بالأمر الواقع.

علَّق كاهن مدينة سبو الصَّغيرة قائلًا:

ـ من الأفضل ألَّا نجنح للحرب إلَّا في حالة الضَّرورة، وأن نعمل على إقناع الملك باعتماد ديانتنا كديانةٍ ثانيةٍ للمملكة، وهذا سيكفل لنا حرية الدَّعوة، والاعتراف بوجودنا شرعيًا؛ وبالتَّالي سيكون صراعنا مع الكنيسة فقط.

استمر النِّقاش لساعاتٍ طويلةٍ، تجاوزت نصف اليوم تقريبًا، دون التَّوصل إلى رأيٍ قاطعٍ يُحدِّد به كيفية الخطوة التَّالية، التي ستُحدِّد ـ بدورها ـ مصير بقائهم من عدمه؛ فقال كاهنٌ عجوزٌ عرك الحياة وعركته، كان يجلس في ركنٍ قصيٍ في صحن المعبد إنَّ خلاصة القول من نقاشكم هذا يتمثَّل في أن تكيدوا للملك حتى تقتلوه، على أن تكون المرحلة التي تسبقها هي أن تتسلَّلوا إلى ولى العهد وتستدرجه ليعود مرَّةً أُخرى إلى دين أسلافه الذي يمنحه القوة والبقاء، على أن يكون ذلك مع حملاتٍ مُستمرةٍ لتطهير الشَّعب؛ فبذلك تتمكنون من التَّغلُّب على الكنيسة، وعلى هذا الاقتراح اتفق المجتمعون..

علم الملك من أعوانه المخلصين، الذين يرون في الأنج شرًا قادمًا لابُدَّ من التَّعامل معه بحذرٍ وبحسم، بأنَّ ما يُعرف بالأنج ـ بقيادة الكاهن الأكبر توتو، وبعض كبار كهنة المعبد المقدَّس، وكهنةٌ آخرون من المناطق المختلفة في البلاد، وأتباعهم الذين مازالوا على دينهم القديم ـ يُفزعون الأهالي والكنائس، في تلك المدن والقرى الآمنة، ويُرغمونهم على العودة لديانتهم مرَّةً أُخرى؛ فجمع الملك وزراءه، بمن فيهم الوزير الأول ومستشاريه، للنَّظر في تلك الأحداث التي يقودها الأنج في

أرجاء المملكة الهادئة..

في ذلك الاجتماع الذي عقد في بهو القصر الملكي للبت في تحركات الأنج المريبة، كانت رُؤية الوزير الأوَّل هي استدعاء هؤلاء الكهنة إلى القصر الملكي، ومن ثم محاكمتهم، والزَّج بهم في السُّجون. ردّ أحد الوزراء مُؤمنًا على كلام الوزير الأوَّل بخصوص الاستدعاء، ولكنَّه كان يرى أنَّه من الأفضل قتلهم، والتَّخلُّص منهم. لم يكن الملك يُفكِّر في ذلك، لقناعته الشخصية بأنَّهم لن يأتوا إلى الموت طائعين. فطالب بإيجاد وسيلة أكثر واقعية للتعامل مع هؤلاء الكهنة الماكرين. أمَّا الوزير الأوَّل فقد كان على يقينٍ بأنَّ الخدعة يُمكنها أن تأتي بهم إلى العاصمة طائعين فتمسك برأيه. في أثناء ذلك الجدال قال مستشار الملك للأمن:

ـ يُمكننا أن نُرسل حملةً تأديبيَّةً تأتي بهم إلى هنا صاغرين.

ردَّ الملك قائلًا:

ـ هذا جيد.

فسأل أمير الجيش إن كان في استطاعته تحريك هذه الحملة في فترةٍ قصيرةٍ. كان الجيش يقف على ثغور المملكة الحدودية، يحميها من أي عدوٍ خارجيٍ، فلم تكن الأوضاع الدَّاخليَّة تحتاج

إلى وجود أعدادٍ كبيرةٍ من الجيش والشُّرطة.

فردَّ أمير الجيش قائلًا:

ـ هذا يكون على حسب حجم الحملة، فمن الممكن أن تكون بأعداد قليلةٍ، ذات كفاءةٍ عاليةٍ، قادرةٍ على حسم الأنج في وقتٍ وجيز.

أوكل الملك إلى أمير الجيش مُهمَّة الحملة العاجلة في القضاء على الأنج بأقل التَّدابير الممكنة، وأن يأتي بكبار الكهنة مسلسلين بالجنازير الحديدية في أيديهم وأرجلهم، وعلى رأسهم الكاهن الأكبر توتو لمحاكمتهم. لم يكن هذا القرار مُقنعًا بالنِّسبة إلى الملكة الأم، فحسب معلوماتها فإنَّ الأنج في تزايدٍ مُستمرٍ، وأنَّهم يتدربون استعدادًا للقتال، فقد مات قِس قرية شبوة على أيديهم، ورأت أنَّهم أصبحوا يُشكِّلون خطرًا حقيقيًا على مملكتهم، ودينهم المسيحي، ولابُدَّ أن يتم التَّعامل معهم بحسمٍ من أجل هيبة الدَّولة، فقالت:

ـ يجب أن يُعدَّ الجيش إعدادًا جيدًا، وأن تكون الحملة بقيادة الملك؛ ليستشعر النَّاس بأنَّ الملك يبذل جل طاقته من أجل إسعادهم، وكذلك إخافة كُلِّ من يُفكر في تعكير صفاء المملكة، بأن مصيره الفناء خلف القضبان أو بالقتل في ساحات المعركة.

بتلك الكلمات الحاسمة من الملكة الأم انشغل الملك في الأيام التَّالية بتجهيز الحملة للزَّحف نحو الجبل المقدَّس، والقضاء على هؤلاء الأنج الأشرار، بقيادة قائدهم الكاهن الكبير توتو..

بدأ المعارضون للكنيسة الشُّروع في تنفيذ مُخطتهم بحِرفيَّة الكهنة المعهودة في رسم وتنفيذ الخطط التي يقع على أثرها الفأر في المصيدة، فتم اختيار شابٍ مقدامٍ لا يهاب الموت، فدُرِّب على كيفيَّة تنفيذ عمليته القادمة من المرحلة الثَّالثة من الخطة، وهي قتل الملك في عقر داره بعد ثلاثة أشهر ونصف من تاريخ تنفيذ الخطة. كما اختاروا فتىً فطنًا في سن ولي العهد تقريبًا، قاموا بتدريبه، ليقوم بالمهمَّة الأوليَّة، وهي محو المسيحيَّة من دماغ ولي العهد، وإبدالها بديانة أنجي آمن، في مدَّة أقصاها ثلاثة أشهر، تبدأ من تاريخ وصوله إلى العاصمة بأمان. أمَّا المرحلة الثَّانية من الخطة، التي ستُنفذ بعد شهر من تاريخ وصول الفتى الفطن إلى العاصمة، فكانت تتمثل في السَّيطرة على قرى ومُدن ولايةٍ كاملةٍ، ثم الزَّحف إلى قرى ومُدن الولاية المجاورة، ثم مقاطعات بعينها في مدَّة أقصاها شهرين ونصف، فهكذا تكون لهم أرضيَّةٌ، فإذا أصبح ولي العهد ملكًا، سَهُل عليه أمر إعادة ديانتهم إلى واجهة المملكة من جديد، وبهذا ينتصرون على

المسيحيَّة، ويقضون عليها تمامًا..

وصل الفتى الفطن، الذي يُلقَّب بأونيكتي إلى العاصمة في مساء يومٍ مُعتدلٍ نسبيًا، فتمكَّن من التَّسلُّل إلى محيط ولي العهد في خلال يومين فقط من وصوله، مُدَّعيًا أنَّه مسيحيٌّ مُلتزمٌ جاء من قرية شبوة ليتعلَّم أصول الدِّين المسيحي، بعد مقتل قِس القرية على أيدي الأنج. نال احترام الجميع، لدماثة أخلاقه، وأُعجب به قديس كنيسة العاصمة الملكية لمقدرته الفائقة في الحفظ والفهم، فتقرَّب أكثر فأكثر من ولي العهد في حواراتهم الكثيرة عقب الدَّرس، حتى أصبح أحد أصدقائه المقربين، فدخل معه إلى القصر الملكي مرارًا وتكرارًا. لم يشك أحد في نواياه التي جاء بها مُتكبدًا المشاق إلى العاصمة؛ بل عُومِل باستلطافٍ من قِبَل الجميع، وكان يُعد ليُصبح قِس قرية شبوة القادم. استغل أوقات خلوته مع نديده ولي العهد ليُحدثه عن حياة القرية قبل مجيء المسيحيَّة، وكيف أنَّ النَّاس كانت تعتقد في هالة الملك، وأصبحت الآن تؤمن بالكنيسة في حياتها اليومية، وحكى له قصصًا رآها في طفولته، وقصصًا أُخرى سمع بها من أفواه الكبار تروي عن عظمة الملك وجلاله، عندما كان يمثل رأس الهرم في ديانة أنجي آمن، التي كانت تُؤمن خلود الملك في

العرش، وفي قلوب النَّاس..

في تلك الأيام أصبح ولي العهد يجلس مع نفسه كثيرًا، يتأمل كلمات أونيكتي الماكرة، التي جعلته يشك في نوايا الكنيسة، وظنَّ أنَّها تعمل على سحب البساط تدريجيًا من تحت أقدام العائلة المالكة، لتُصبح هي الحاكمة بأمر الرَّب. راح يطلب من جدته أن تُقصَّ عليه قصص أجداده الملوك في زمن ديانة أنجي آمن. ارتابت الجدة ـ الملكة الأم ـ من التَّغيرات التي طرأت على حفيدها في أحاديثه، وأفعاله، وانزوائه في غرفته لساعاتٍ طويلة؛ فجنَّدت أحد الحرَّاس لمراقبته باستمرارٍ، حتى تُنهي مخاوفها من أنَّ هناك شخصًا يُسمِّم أفكار حفيدها. ظلَّ الحارس يُراقب ولي العهد لعدة أيام، ويجمع المعلومات عن الأشخاص الذين يلتقي بهم ولى العهد، فأخبر الملكة الأم بأنَّ هناك فتىً يُدعى أونيكتي قدم من قرية شبوة، ليدرس تعاليم الدِّين المسيحي في كنيسة العاصمة الملكية، يكاد يكون الوحيد الذي يجلس في الآونة الأخيرة مع ولي العهد لساعاتٍ طويلةٍ. بدورها تحدَّثت الملكة الأم مع ابنها الملك بشأن ولي العهد، وعن التَّغيرات التي حدثت له بعد أن ارتبط بصداقةٍ وطيدةٍ مع المدعو أونيكتي، فقالت إنَّها تشك أن يكون هذا الفتى مُرسلًا من قِبل الكهنة في الجبل

المقدس، وأنَّهم يتآمرون على تنفيذ مُخططاتهم الشِّريرة للسيطرة على الدَّولة..

أمر الملك بحبس الفتى أونيكتي في السِّجن الانفرادي، وإجراء التحقيقات الأولية المستفيضة معه، إلى حين أن يعترف أو يُبتَّ في أمره بعد حملة القضاء على الأنج.

وكذلك أمر بأن لا يعلم ولي العهد ـ طري الغصن ـ بهذا الأمر، حتى لا يحن قلبه لهذا الفتى الماكر، ويساعده على الهرب بطريقة غير مباشرة. أنكر أونيكتي التُّهمة الموجهة إليه جُملةً وتفصيلًا، مُدعيًا أنَّه مسيحيٌ مُلتزمٌ جاء ليتعلم أصول الدِّين المسيحي في كنيسة العاصمة الملكية، فيصير قِسًا في قريته ـ بعد مقتل قِس القرية ـ ليفقه الناس في أمور الدِّين ويصلي بهم، فظلَّ حبيس السِّجن في زنزانةٍ مُنفردةٍ طولها أربعة أذرع، وعرضها ذراعان فقط. لم يكن ثمَّة أحدٌ يزوره أو يسأل عن أحواله طوال فترة حبسه، فكان يمني النفس بأن يتدخَّل صديقه ولي العهد، ويُطلق سراحه. ولي العهد الذي لم يُكلِّف نفسه حتى زيارته؛ فشعر الفتى الفطن حديث التَّجربة بإحباطٍ عارم يجتاح فؤاده..

كانت خطة الملكة الأم تقضي بأن يُترك الفتى أونيكتي في زنزانةٍ مُنفردةٍ، دون أن يمر عليها الضَّوء، مع تناول وجبةٍ واحدةٍ في

اليوم تأتيه من تحت باب الزِّنزانة، على أن يشرب كوبًا من الماء الساخن لمرة واحدة لا غير في الأسبوع، حتى يشعر بطعم الموت يدنو من روحه، وينحل جسده وتشح المياه داخل أوعيته الدموية، فيفقد التركيز والسيطرة على حواسه، فتأتيه الأحلام المزعجة، فتدور في لباب عقله فتصبح كوابيس مزمنة، فيفقد على أثرها صوابه، ثم يقوم القديس بزيارته، والتَّحقيق معه في شكل نصائح بابوية مقدسة، وهو في تلك الحالة الصحية والعقلية السيئة، حتى يعترف بحقيقة أمره بإرادته أم من غير إرادته..

في البدء كانت زيارة القديس للفتى أونيكتي ذي طابع ودي، فأخبره أنه أتى إلى هنا لمساعدته، فلابد أن يتعاونا معًا حتى تظهر براءته، ثم أخذت الزيارة تأخذ شكلًا دينًا، فتحدث القديس عن إعجابه بتلميذه النابغة، فراح يعطيه دروسًا عن تعاليم الدين المسيحي السمحة، ليشعره بالأمان حتى يستجيب له، كانت هذه الزيارات لساعة واحدة في اليوم، وعندما بدأ الفتى أونيكتي ينهار نفسيًا وعصبيًا، تكرَّرت تحقيقات القديس السِّرية معه في اليوم الواحد، فظنَّ الفتى أونيكتي أنَّها نصائحٌ أبويَّةٌ من القديس لتخفف عنه محنته، فاعتنق الديانة المسيحيَّة، واعترف

بأمره، وأخبر القديس بخطط الكهنة التي يرسمونها في برقيل..

أكمل الملك تجهيز الجيش، وقرَّر الزَّحف نحو الجبل المقدَّس لإكمال مُهمته في القضاء نهائيًا على الأنج، فأمر أمير الجيش بأن يكون صباح الغد موعد التَّحرُّك، وأن يكون كبير القساوسة ضمن الجيش المتحرِّك لاستلام مفاتيح معبد الجبل المقدَّس. نشرت الكنيسة خبر الزَّحف المبارك نحو الجبل المقدَّس لطمأنة الأهالي المفزوعين من خطر الأنج، خاصةً في القرى التي تقع على مسافات غير بعيدة من بلدة برقيل، وبأنَّ الكنيسة هي من حرَّضت الملك على ذلك، حتى يعُمَّ الأمن والاستقرار في ربوع المملكة. شعر معظم النَّاس بارتياحٍ من تلك الأنباء السارة، وحملوا القرابين، والهدايا إلى كنائسهم؛ لينصر الرَّب جيشهم، ويحمي لهم ملكهم المعظَّم، وأسرته الكريمة، ويحفظ لهم الكنيسة من شر أعدائها، لأنَّ هذه الحملة تُمثِّل بالنِّسبة إلى الأهالي طوق نجاةٍ من حروبٍ قادمةٍ بين الكنيسة والأنج، يكون فيها الشَّعب هو أعواد الحطب التي تُشعل بها نار الحرب، التي قد تستمر لعدة سنين. لم يكن الكثير من الأهالي يتمنَّون أن تستمر الحرب لفترةٍ طويلةٍ، فتمنَّوها حربًا خاطفةً تقتلع فكرة الأنج من جذورها، حتى لا تنبت من جديد في مناطق أُخرى من الدَّولة. وكان هناك

آخرون يُشكِّكون في مقدرة الحملة على هزيمة الأنج، لما يعرفونه عن مكر ودهاء الكهنة، ومقدرتهم على استعمال كُلِّ الحِيل التي تُحافظ على بقائهم، وأنَّهم إذا اضطرهم الأمر لاستعمال السِّحر فلن يتوانوا عن استعماله. رُبَّما يسحرون الملك نفسه؛ فيجعلونه يتفاوض معهم، ويخلي سبيلهم. وآخرون كانوا يُراقبون ما ستؤول إليه نتائج الحملة، حتى يُقرروا إلى أي الجهات هم منضمون، فكانت الحملة تُمثل مُفترق طُرقٍ لقادم الأيام، في تحديد هويَّة المملكة الدِّينية..

في صبيحة اليوم التَّالي؛ تحرَّكت جحافل الجيش بقيادة الملك، وسط الأهازيج والزَّغاريد، فعرج الملك بجيشه نحو النِّيل؛ فترجَّلوا عن خيولهم وبغالهم التي شربت الماء من النَّهر مباشرةً، ثم نزل كبير القساوسة إلى النَّهر حاملًا طاسةً من الفضة ـ كتبت فيها نحن نثق في الرب المعبود ـ فملأها بالماء، ثم أحضرها إلى الملك. شرب الملك من طاسة الماء الفضيَّة، ثم شرب الوزير الأوَّل وأمراء الجيش من بعده، أمَّا العسكر؛ فهبطوا إلى النَّهر بأقداحٍ صغيرة من القرع، فشربوا بها الماء، ثم قرأ عليهم كبير القساوسة آياتٍ من كتاب الإنجيل المقدَّس، وتلا الملك تراتيل النَّصر من العهود القديمة، ثم اتجهت الحملة ـ بقيادة الملك ـ

إلى ساحة المدينة مرَّةً أُخرى، فدقت لهم الطُّبول، وغنَّيت لهم التَّرانيم، فذهب الملك ومعه الوزير الأوَّل، والقدِّيس، وأمير الحرب إلى والدته الأم المقدَّسة؛ فدعت لهم بدعوات النَّصر القديمة، ورشَّتهم بماء النهر العذب. أمَّا النِّسوة اللائي اصطففن على جانبي الطَّريق الذي مرَّ به الجيش المتحرِّك؛ فرشن الجيش بالماء أيضًا وهُنَّ يُزغردن. فزمهر الرجال بالتهليل، فارتفعت معنويات المقاتلين إلى حد السَّماء، فتمنوا أن تمرَّ بهم الأيام في لحظةٍ حتى يُذيقوا هؤلاء الأنج شر الهزيمة، ويمحوهم من على وجه الأرض، لتُصبح مملكتهم آمنةً، ومستقرة..

طار خبر تحرُّك الجيش بقيادة الملك، ووزيره الأوَّل، وأمير الحرب، وكبير القساوسة نحو بلدة برقيل، فوقع ذلك الخبر على مسامع الكاهن الأكبر توتو وجماعته، الذين كانوا على وشك تنفيذ البند الثَّاني من مُخطَّطهم، الذي طبخ على الموقد الكهنوتي في مطبخ الكهنة بالمعبد، وكاد أن يستوي على جمر نار الفحم الملتهبة، لولا قوة بصيرة الأم المقدسة التي حرضت لهذه الحملة، فأربكت حساباتهم، وتلاشت خُططهم، وشُلَّ تفكيرهم تمامًا؛ فقبل أن يتعشوا بالملك والكنيسة تغدَّوا هُم بهم. في اجتماعهم الأخير ـ قبل الرَّحيل ـ رأى مجموعةٌ من الفِتية أن يتحصَّنوا

داخل أسوار المدينة، بعد جمع الغَلَّة والعتاد الذي يُمكِّنهم من الصُّمود لأطول فترةٍ مُمكنةٍ، مع العمل على حرب الاستنزاف حتى يُرهقوا الجيش القادم إليهم، ويدخل معهم جلالة الملك في تفاوضٍ يُؤدي ـ في نهاية المطاف ـ إلى الاعتراف بهم، ولو على بلدة برقيل فقط. وافق كاهن بوتو على هذا الرَّأي، وأردف قائلًا:

ـ إنَّ الفرصة قد أتت إلينا بقتل الملك، ومعه كبير القساوسة، برميهما بسهمين مسمومين من فوق الحصن، فيعود الجيش خائبًا إلى ولي العهد الذي يكون قد أصبح ضمن جماعتنا بنسبة تسعين بالمائة بفضل براعة الفتى أونيكتي.

أيَّده كاهن مدينة سبو الصَّغيرة في أمر قتل الملك، والقديس؛ فقال:

ـ لدينا من الفتية الذين يُجيدون الرَّمي بالنِّبال من مسافاتٍ بعيدةٍ، ولا يُخطئون الهدف. أليس إتقان الرَّمي بالنِّبال واحدةً من أساسيات تصعيد الكُهَّان إلى المراتب العليا في سلم التَّوظيف الكهنوتي؟

الكاهن توتو كان أكثرهم صدمةً من نبأ تقدُّم جيش الملك نحوهم، فكان يُمنِّي النَّفس بنجاح خُطتهم في سريةٍ تامةٍ دون

أن تعترضها رياحٌ عاتيةٌ لا يشتهونها، فرد قائلًا:

ـ صحيحٌ ما ذكرتموه من معلوماتٍ، وأكيدٌ أنَّ لدينا فتيةً لهم مقدرةٌ فائقةٌ في الرَّمي بالنِّبال، فإنَّهم قادرون على إصابة الهدف بدقة، حتى ولو كانت نملةً صغيرةً تسير في الظَّلام، ولكن ليست هذه هي المشكلة التي تواجهنا الآن.

قبل أن يُكمل الكاهن توتو حديثه أجابه كاهن أباد قائلًا:

ـ أتقصد تلك الحكاية التي لم تجعلني أنام منذ البارحة، وأنَّ مصيرنا سيكون التِّيه في غياهب المجهول؟.

فرد عليه الكاهن توتو:

ـ بالضبط؛ هذا ما كنت أفكِّر فيه أنا أيضًا طوال الليل، وأرقني في منامي.

فقال كاهن آباد:

ـ إذا لم نُفكِّر جيدًا، ونتخذ القرار السَّليم، وفي الوقت المناسب سيكون مصيرنا كمصير حكاية أجدادنا الكهنة مع الملكة الحديديَّة نفرين تيتي، أو سيكون مصيرنا الفناء تحت أقدام خيول جيش الملك.

تحمس الشَّباب اليافع لأمر الحرب، والقتال من فوق أسوار حِصنهم، وقالوا إنَّهم قادرون على إصابة الملك، والقدِّيس، وعددٍ

كثيرٍ من الجنود، إلَّا أنَّ كاهن بوتو غيَّر من موقفه، ومعه كاهن سبو الصَّغيرة، وانحازا إلى الرَّأي القائل إنَّه من الأفضل إيجاد مخرج يكون أكثر واقعيةً دون أن يُعرِّضهم ذلك إلى التَّهلكة، تم الاتفاق ـ بعد مشاوراتٍ طويلةٍ ـ على ألَّا يكون القرار انفعاليًا، كما تم تأجيل الاجتماع إلى المساء، على أن يُشكَّل مجلسٌ من عشرة كُهَّانٍ يبتُّون في الأمر الذي يكون مُلزمًا للجميع..

اجتمع الكُهَّان العشرة مساءً، وبعد مداولاتٍ استمرت لمدة ساعتين، خرجوا بالقرَّار التَّالي: إنَّه لا قِبل لهم بمجابهة جيش الملك، لا من النَّاحية العسكريَّة، ولا من النَّاحية العدديَّة، وبالتالي فإنَّ تحصُّنهم داخل أسوار المدينة يعنى هلاكهم، فكان الحل الوحيد بالنِّسبة إليهم هو الهروب إلى مكانٍ آمنٍ، دون أن يُطاردهم جيش الملك، فكان هذا هو الرَّأي الأرجح الذى اتفق عليه العشرة المجتمعون. أمَّا المكان المناسب فكان براري وجبال الشَّرق، في المنطقة التي تفصل دولتهم عن دولة البجة، حيث إنَّها منطقةٌ مُهملةٌ من قِبل الدَّولتين نسبةً إلى وُعورتها، مما لا يجعل أحدًا يخطر بباله أنَّهم لجأوا إلى تلك المنطقة، التي لا تصلح للحياة الآدمية، فإن تحيا في أرض جرداء خيرٌ من الفناء..

بعد نصف ساعة من انتهاء اجتماعهم الأخير في معبد برقيل

المقدس، الذي سيتغير بموجبه مجرى تاريخ حياتهم وحياة الأهالي في عموم وادي النيل، وافق الجميع على هذا القرار الملزم دون نقاش، فجمعوا كُلَّ ما لديهم من أغراض، ولوازم، ومتاع، استعدادًا لرحلة الفراق المر في اتجاه المجهول، فبكى الكثير منهم بكاءً بشهيق، وسرحت وجوه بعضهم تتذكَّر الماضي، والمكان، وتتأمَّل في الغد وما يُخفيه لهم من أسرار. ومنهم من حمل معه حِجارةً أو تماثيل صغيرةً من المعبد كتذكار، ومنهم من حمل معه تراب الأرض الغالية أو أصداف النِّيل؛ لعلَّها تُطفئ نار شوقهم وحنينهم لهذه البُقعة الطَّاهرة، عندما يبتعدون عنها. أما الشباب اليافع الذي تحمس لخوض غمار المعركة، من فوق سور البلدة، فتدرعا بأسلحتهم استعدادًا للقتال، الذي قد ينشب في أي وقت، فما بين الحرب والسلم لحظة من السكون والعاصفة..

قُبيل رحيلهم، خطب فيهم قائدهم توتو بأنه لابُدَّ لهم من التَّحرُّك بسرعة البرق، حتى لا تلحق بهم جحافل جيش الملك، وتدهسهم تحت حوافر خيولها، وأنَّ عليهم أن يُحافظوا على تشكيل قافلتهم في كُلِّ الأحوال، وأن يكون المسنون، والنِّساء، والأطفال في وسط القافلة، وأن يكون الشباب المدججين بأسلحتهم في مقدمة القافلة لحمايتها، ومن خلفهم كبار الكهنة

بمن فيهم قائدهم توتو، حتى تصل إلى هدفها بالسلامة، ودعاهم إلى أداء قسم العودة إلى هذه البقعة الطَّاهرة فاتحين ومُبشرين لدينهم ودين أجدادهم الأولين، فكتبوا ذلك القسم على ظهر تمثال خنفساء مقدَّسة صُنعت من أصداف النِّيل إبَّان مجد المعبد المقدَّس. قُبيل تحرُّكهم أشاعوا هذا الخبر القائل بأنَّهم سائرون في الطريق نحو الغرب، مُبشرين الناس في تلك النواحي بالمحافظة على دين آبائهم القديم، وليجمعوا الأنصار للعودة مرة أخري إلى حضن هذا المعبد المقدس..

وصلت الحملة ـ بقيادة الملك ـ إلى الجبل المقدَّس في صبيحة كيراقى(1) بعد مرور خمسة أيام كاملةٍ على رحيل الأنج من المدينة، فلم يجد الجيش المتحمِّس للقتال أيَّ عدوٍ يُنازله ويقارعه. فكان الجيش منذ أن زحف من العاصمة، وفي طريقه إلى بلدة برقيل، يمر بأطراف القري والمدن، فيخرج الأهالي من مساكنهم لاستقباله بفروع النباتات الخضراء

وتوديعه بالأهازيج والزَّغاريد، وهذا كان بفضل الكنيسة التي عبأت الناس بإخافتهم من خطر الأنج، وبالحجر نفسه ضربت عصفورًا آخر، فبرهنت للملك أن الشعب مصطف من حوله

(1)كيراقي - يوم الاحد .

في حربه المقدسة باسم الكنيسة. دخل الملك ومُعاونوه إلى المعبد المقدَّس، فتجوَّلوا فيه، دون أن يُحقِّق الملك أُمنيته وأمنية الأم المقدسة بالقبض على الكاهن الأكبر توتو وجماعته، وتقديمهم إلى المحاكمة، ليكونوا عبرةً وعِظةً لكُلِّ من تُسوِّل له نفسه في إشاعة البلبلة في ربوع المملكة، أو يُجاهر بمعادة الكنيسة، التي انتصرت في آخر الأمر على المعبد، وورثت مبانيه ومكانته في قلوب الناس، وفي تسيير حياتهم العامة، وتوفيرها لهم الغذاء الروحي. ربما يكون هذا الأمر إلى أبد الدهر، وربما يكون للمعبد كلام آخر، سيرويه في يوم ما، وفي عام ما، ربما يكون بعيدًا وربما يكون قريبًا..

تمَّ تسليم مفاتيح المعبد المقدَّس إلى كبير القساوسة، في احتفالٍ بهيج حضره سُكان البلدة والقرى المجاورة للجبل المقدَّس، وأديت فيه صلاة القداس والشكر للرب المجيد، وتمَّ الإعلان بأمر من الملك، وهو القضاء نهائيًا على الأنج المشاكسين، واستئصال جذورهم من تراب هذه البلدة التي كانت تؤويهم، وتوفر لهم الحماية لإرهاب الناس في مسكنها الآمن، وأكد بأنه سيتم محو آثارهم كليةً من ربوع المملكة، وتعهد بأن الفترة القادمة ستشهد تشييد عدد من الكنائس الجديدة، وتنفذ فيها

المشاريع الخيرية للنماء والازدهار. ثم أرسل الملك رسله فوريًا وعاجلة إلى حُكَّام ولايات الغرب في الجبال، والواحات، والسُّهول، وأمرهم فيها بمحاربة هؤلاء الأنج الوثنيين، والقبض على قائدهم توتو ومعاونيه، مهما كلف الأمر، ومن ثم إرسالهم إلى العاصمة مقيدين بالسلاسل والجنازير الحديدية، تحت حراسة مشددة من جنود أقوياء لا يهابون الموت، لتتم محاكمتهم، والتَّخلُّص من شرِّهم، وهكذا رجع الملك المبجل إلى عاصمته مُنتصرًا دون أن يُريق قطرة دمٍ واحدة..

| 3 |

كانت طبيعة وتضاريس المنطقة الشَّرقيَّة، التي تقع على الحدود الفاصلة مع كيان البجة، قاسيةً ومُوحشةً، فهي تتكوَّن من سلاسل جبليَّةٍ مُتقطعة، ذات سهولٍ ضيقةٍ بينها، وبراري تكثر فيها الوحوش البريَّة، لم يسكن فيها إنس ولا جان، كما يعتقد كثيرًا من الناس في ذلك الزمان، فكان ملوك النُّوبة ـ في زمنٍ مضى ـ يصطادون فيها الحيوانات المفترسة، بعد تغذيتها بالمياه. عانى الوافدون أيَّما مُعاناةٍ للتَّأقلم مع هذه البيئة الصَّعبة، فلم يكن لديهم خيار آخر، بعد أن فروا من الموت تحت حوافر خيول جيش جلالة الملك، ومنذ أن حطوا رحالهم في هذه الأرض، أسَّسوا قريتهم الصغيرة في أحد تلك السُّهول الضَّيقة، وبنوا فيها معبدًا صغيرًا، يُؤدون فيه مناسكهم الدِّينية، ويجتمع فيه كبار الكهنة ـ باتوا يُعرفون بمجلس الكهنة العشرة ـ لمناقشة كيفيَّة تسيير الحياة في هذه الأصقاع، وكيفيَّة العودة مرَّةً أُخرى

إلى الجبل المقدَّس مُنتصرين لدينهم..

في إحدى الأمسيات الشتوية القارصة، وبينما هُم مُجتمعون في المعبد الصَّغير، يناقشون أمورهم الخاصة، سقط الكاهن العجوز، الذي خبر أسرار الحياة وعركها لسنين طويلة، مُتأثرًا بهبوطٍ حادٍ في الدَّورة الدَّموية، نتيجةً لحزنه الشَّديد على فراق برقيل، نُقل ـ على أثرها ـ إلى منزله بعد تلقيه الإسعافات الأولية، فألقوا به في سرير المرض دون أن تكون لديه قدرة على التحرك، فلم تستطع جميع المحاولات العلاجية التي أعطيت له فيما بعد إيقاف ذلك الهبوط الحاد، ففارقت روح الكاهن العجوز الحزينة على فراق مسقط رأسها هذه الحياة القاسية، فكانت أوَّل حالة وفاةٍ في القرية. شاركت كُلُّ القرية في تشييع جثمانه، من المعبد إلى ساحةٍ خاليةٍ، في الطَّرف الغربي للقرية، فدفن فيها، على طقوس ديانة أنجي آمن، فوضع الميت داخل تابوت من الخشب المزخرف والمنقوش بطلاسم الكهنة، فأدخل التابوت داخل حفرة ووضع في كنبة من الحجر، فرقد الجثمان في مثواه الأخير في اتجاه الشرق إلى الغرب، في مقبرة شكلها عبارة عن حدوة حصان، فدفنت معه ممتلكاته، وهي عبارة عن سهم من العاج، عدد من الحلى، عدد من أدوات الزينة، من أقراط وخواتم

وتماتم، بعضها مصنوع من المرمر، وبعضها مصنوع من الفضة والذهب، وتمثال من البرونز للإله أوزوريس، ثم أهيلت عليها كومة من التراب والغش والحجارة. ومن يومها اتُّخذت تلك السَّاحة مقبرةً للقرية، وسُميت باسم الكاهن العجوز ..

حزن القائد توتو بشدة لموت هذا الكاهن النبيل والحكيم معًا، لما كان يُمثله من ثقل في مجلس الكهان العشرة، لرجاحة عقله، وآرائه الصَّائبة، التي كانت دائمًا تقودهم إلى بر الأمان في بحر الحياة الجارف، فبدأ يُدوِّن عن هذا الكاهن العجوز، بإحساس صادق فتمتلئ عيناه بالدموع، ثم عكف يُدوِّن عن ذكرياتهم بجانب النهر الخالد، ولحتميَّة الموت؛ دوَّن أحداث ذلك اليوم الذي أدوا فيه قَسَم العودة ساعة رحيلهم عن الجبل المقدَّس، وكتب ذلك على ظهر تمثال تلك الخنفساء المقدَّسة التي صُنعت من أصداف النِّيل إبَّان مجد المعبد المقدَّس، فخبأ تلك المجلدات التي كتبها وتمثال الخنفساء الصدفي ضمن مُقتنياته، لعلَّها تنير الطَّريق يومًا ما لأحد أحفادهم؛ فيُحقِّق هذا القَسَم المنقوش على ظهر تمثال الخنفساء، إذا عجز جيلهم هذا عن تحقيقه، وكذلك جيل أبنائهم..

استمر مجلس الكهنة يعقد جلساته المسائيَّة في المعبد الصغير،

دون وجود الكاهن العجوز، ودون أن يصعد كاهنٌ آخر مكانه، فهكذا استمرت الحياة تمضي بالقرية في فيافي الأرض السمراء، من حالٍ إلى حالٍ، فبعد حينٍ من الزَّمن، انضم إليهم عدد هائل من الوثنيين أمثالهم من البجة، الذين جاءوا إلى القرية الصغيرة، لمبايعة كبير الكهنة توتو على الولاء لدينهم، وأبدوا كرههم الشديد للديانة المسيحية التي أطفأت أنوار ديانتهم المعشوقة منذ القدم، فكان ولاءهم لديانة أنجي آمن لحد الموت من أجلها، فتمنوا لو زحفوا إلى برقيل الآن لنصرة دينهم ودين آبائهم، فكانوا ـ في سابق العهد والزمان ـ يحجون كل عام إلى الجبل المقدس، والأماكن المقدسة الأخرى، للتبرك وتقديم القرابين للإله، ليهبهم الرزق ويمنحهم سر الوجود والسعادة اللامتناهية على ظهر هذا الكون، منذ أن كانت أرض وادي النيل دولة واحدة وتحكم وتدار من عاصمة واحدة، وتنتمي لها كل المدن والقرى البعيدة والقريبة من النهر، فالناس في تلك الأيام كانت تنام لتحلم بالحب الحقيقي وتصحو لتغرس سنابل الحياة الجميلة، فتسقيها من وريد إنسانيتها العامر بالدم النقي..

كبرت القرية التي أصبحت طاقتها الاستيعابية لا تسع لتلك الأعداد المتدفقة إليها، فأُسست قريةٌ أُخرى تُجاورها، وظلَّ

مجلس الكهنة ـ كما هو ـ بتسعة كُهَّان، ثم قلَّ عددهم إلى ثمانيةٍ برحيل كاهن آباد، دون تصعيد كاهنٍ آخر مكانه. مع مرور السِّنين رحل كاهن سبو الصَّغيرة، وكذلك كاهن بوتو، ثم رحل الكُهَّان الخمسة الآخرون في رحلة الحياة القصيرة من الميلاد إلى الممات، فبقى القائد توتو الذي تجاوز المائة عام وحيدًا في المعبد، يُخبر حفيده عن ألم الرَّحيل إلى هذه المنطقة القاحلة، ويُحفِّظه ما كُتب في تمثال الخنفساء المصنوعة من أصداف النِّيل، الذي على ضفته يُوجد المعبد الكبير، وبيت أجدادهم..

في يومٍ ما، كان فيه الطَّقس رائعًا، والناس مُبتهجةً في كرنفالاتٍ صغيرةٍ في شوارع القريتين المتجاورتين، وفي نحو السَّاعة الثَّانية ظهرًا تُوفي القائد توتو، وهو يجلس وحيدًا في المعبد، يكتب في مذكراته، وفي صبيحة اليوم التَّالي؛ شُيِّع جُثمانه، الذي حضره سكان القريتين عن بكرة أبيهم، فذهب الناس خلف الجُثمان من المعبد إلى مقابر الكاهن العجوز، بالعويل وإيقاع النحاس الحزين، حتى وارى جسد الكاهن توتو الثراء، فبموته كانت نهاية مجلس الكُهَّان العشرة، وكانت نهاية المعبد نفسه، الذي انتهى دوره في تسيير حياة الناس تدريجيًا، فتشكلت ملامح وصفاتٌ جديدةٌ لإنسان القريتين، تماشيًا مع طبيعة المنطقة،

فتزاوجوا وانصهروا فيما بينهم، وعاشوا دهرًا من الزَّمن حياةً بدويَّةً قاسيةً، توارثوا فيها كُرههم للمسيحيَّة، التي أتت بآبائهم الأولين إلى هذا المكان الموحش من الكرة الأرضيَّة، فنسوا كُلَّ طقوسهم، ومعتقداتهم الدِّينية ما عادا حمل سوط الأنج معهم دائمًا..

في تلك السِّنين التي شهدت تحولاتٍ كُبرى في تاريخ النُّوبة، فكان ذلك بعد ميلاد السيد المسيح بزمنٍ ما، فسادت الدِّيانة المسيحيَّة على مفاصل الدَّولة الدِّينيَّة والرُّوحية، وأزاحت من طريقها الدِّيانات القديمة عن واجهة المملكة الدِّينيَّة، إلا أنَّ الدِّيانات القديمة ظلَّت باقيةً رُوحيًا في نفوس النَّاس، وفي عاداتهم، وتقاليدهم، فوجدوا لها مخرجًا يتماشى مع الدِّين الجديد، وهكذا مزجوا بين الأديان في تشكيل شخصيتهم المسيحيَّة. في تلك السِّنين؛ أصبحت هناك ثلاث ممالكٍ نُوبيَّةٍ مسيحيَّةٍ مُنفصلةٍ عن بعضها تمامًا، فيربطها نهر النيل سليل الفراديس بجريانه من الجنوب وإلى الشمال، فتجمعها المصالح المشتركة، والدِّفاع المشترك في وجه أي خطرٍ قادم، فكانت لكُلِّ مملكةٍ ملكٌ قائمٌ بذاته، وعاصمةٌ مستقلةٌ، ومطرانٌ مدلل يشرب في الصباح الباكر عسل النحل الصافي، وكاتدرائية مرصعة بأجمل

التحف الفنية النادرة، ومقاطعات تجوب فيها الزرفان والفيلة، وولايات متلاصقة مع بعضها كأشجار المانجو المتشابكة في حقل وارف يطل على النهر، وقوانين، ودساتير، تنظم شؤون المجتمع والمملكة. ازدهرت هذه الممالك الثَّلاث اقتصاديًا، وثقافيًا، وعسكريًا، وعاش الأهالي حياةً من التَّرف؛ فنسوا أمر الأنج برُمته من مجالسهم، إذ كانت تشغلهم ـ آنذاك ـ حروبهم المستمرة ضدَّ الرُّومان..

في تلك الأصقاع الموحشة، ذات التَّضاريس الصَّعبة، التي تقل فيها الأراضي الزِّراعية الصَّالحة للغرس؛ عاش الأنج حياةً بدويَّةً قاسيةً في قرىً مُتفرقةٍ تُحيط بقريتهم القديمة، التي أصبحت مدينةً صغيرةً، كانت تُمثِّل ـ بالنِّسبة إليهم ـ العاصمة. امتهن السَّواد الأعظم منهم الرَّعي والصَّيد، فكانوا يُشاركون الحيوانات المفترسة صيد الأنعام والطَّير، وأحيانًا يُصارعون تلك الحيوانات من أجل غنيمةٍ من تلك الأنعام، فنمت عندهم عادةٌ جديدةٌ وغريبةٌ وهي إلزاميَّة أن يتضمَّن مهر العروس أحد هذه الحيوانات المفترسة، لا بد أن يصطاده العريس بنفسه، فيخرج في رحلة صيدٍ في مُدَّةٍ أقصاها شهرٌ مع أصدقائه، ونفرٌ من أهل العروس يشهدون له بشجاعته، وفروسيته في صراعه مع الحيوان

الذي يرغب هو في صيده، وأحيانًا أخرى كان أهل العروس هم من يحددون نوع الحيوان الذي يجب أن يقدم مهرًا لابنتهم البكر، بذلك يُصبح العريس مُؤهلًا لحماية عروسه ـ وأُسرته فيما بعد ـ في تلك البراري الصَّعبة..

لم يهتم هؤلاء الأنج ـ كما أسلافهم ـ بأمر الدِّين والمعبد كثيرًا، فصار معبد المدينة القديم، الذي بناه القائد توتو، ومجلس الكهان العشرة خاويًا من البشر، فسكنته العفاريت، والطيور، والزَّواحف، وسقطت أجزاء كثيرة من جدرانه بسبب الإهمال، فظل الباب بكتفيه العريضتين شامخًا مع أجزاء أخرى من الجدران. كما نسوا أمر حروبهم مع المسيحيَّة إلَّا القليل منهم، رغم أنَّهم كانوا يكرهون كُلَّ ما يمت للدِّين بصلةٍ، وخاصة المسيحيَّة التي يعتقدون أنَّها عبارةٌ عن وحشٍ ضخمٍ حارب أجدادهم بجانب النَّهر، فهربوا منه إلى هذه الأرض الجرداء. إلَّا أنَّهم كانوا يحتفظون ببعض العادات والتَّقاليد الاجتماعيَّة، التي تربطهم بديانتهم القديمة، ظنًا منهم أنَّه سلوكٌ بشريٌ عام ينتهجه الإنسان في مسيرة حياته القصيرة من المهد وإلى اللحد..

سارت بهم الحياة من عام وإلى عام في عُزلةٍ تامةٍ عن العالم الذى من حولهم، في جماعاتٍ مُتفرقةٍ يربطُها المصير المشترك، والكفاح

من أجل البقاء، على ظهر هذه الأرض الفسيحة. ومن حينٍ إلى آخر كان يأتيهم قائدٌ يُوحِّدهم، وفي زمن جميل بالنسبة إليهم، جاء القائد تويو، الذى شُغف بحب العلم والمعرفة، فمنذ أن كان صغيرًا كان يسأل ويستفسر كثيرًا عن الحياة والموت، والخوف والطمأنينة، فكان يطرح أسئلةً تكبر سنه بكثير. وعندما بلغ سن الرَّابعة عشرة من عمره سأل جدَّه ـ ذات يوم ـ عن ذلك المبنى المهجور الذَّي يقع بالقرب من منزلهم، فأجابه الجد:

ـ عندما هرب أسلافنا من وحش المسيحيَّة، بنوا هذا المبنى لاجتماعاتهم، وفيه مات جدُّك الكبير.

تردَّد تويو وأصدقاؤه على المبنى المهجور، بحثًا عن خيطٍ يُعرفهم بتاريخ أجدادهم، وفي اليوم الذي ذهب فيه تويو بمفرده إلى ذلك المبنى، عثر على صندوقٍ خشبيٍ يقبع خلف المصطبة العالية التي تُوجد في آخر المبنى. فحمل معه الصُّندوق الخشبيٍ إلى دارهم..

دخل الصبي تويو إلى حجرته يُقلِّب الصُّندوق الخشبي، فعثر على مُجلَّداتٍ مُهلهلةٍ وغير مُرتَّبةٍ، وعثر على تمثال الخنفساء المصنوع من أصداف النِّيل، فذهب بالصُّندوق إلى جده، الذي تفاجأ بوجود هذا الكنز، الذي ظل محبوسًا في ذلك المبنى المهجور

لعشرات السنين، فانبهر بعبقرية حفيده، التي لولاها لما عثروا على هذا الكنز الثمين بتاتًا. انهمك الجد وحفيده طيلة عشرة أيام كاملة، بترتيب أوراق المجلدات المبعثرة، وقراءة الكلمات المطموسة. كان عددٌ قليلٌ جدًا من الأنج يعرف فن القراءة والكتابة. كما قرأ الجد الكلمات المنقوشة على ظهر الخنفساء، التي تتحدَّث عن عهد العودة إلى بلدة برقيل ومعبدها المقدس منتصرين وفاتحين، وعندما أكملوا قراءة ما يُمكن قراءته من تلك المجلدات المهلهلة، اكتملت ـ بالنِّسبة إليهم ـ الصُّورة العامة لقصة أسلافهم مع المسيحيَّة. شجَّع الجد حفيده تويو أن يكون هو القائد القادم لتوحيد شعب الأنج، الهائم على وجهه في هذه البراري الموحشة، ومن ثم تكوين جيشٍ قويٍ يزحفون به نحو النَّهر لمحاربة المسيحيَّة، والاستيلاء على مُلكها الغاشم..

وفي اليوم الثالث من تاريخ معرفة ما كتب على ظهر الخنفساء المقدسة، تحدث الصبي تويو مع أصدقائها عن أمر الصُّندوق الخشبي، وذهب بهم إلى منزله لمقابلة جدَّه الذي عكف يشرح لهم باستفاضةٍ ما كُتب في المحتويات التي وُجدت في الصُّندوق، وراح يدلهم على خارطة الطَّريق التي يُمكنهم بها تحقيق حلم أجدادهم الأولين. تحمس الفتية لكلام الجد، وناقشوه عن أشياء

كثيرةٍ بدأت تتكوَّن في مخيلتهم الصغيرة، فسأله حفيده تويو قائلًا:

ـ هل هذا يعنى بأنَّ علينا ـ في البداية ـ استرجاع ديانة أنج آمن في نفوس النَّاس، وتنظيف المعبد المهجور وترميمه ليعود إلى سابق عهده؟.

أجابه الجد بعد تفكيرٍ عميقٍ فقال:

ـ إنَّ هذا الأمر غير ضروريٌّ الآن، فالنَّاس لا يُحبون أن يكون لديهم دينٌ يُقيدهم، فلنترك هذا الموضوع لاحقًا.

ردَّ عليه حفيده قائلًا:

ـ حسنًا يا جدَّي، لأنَّ من الصَّعب علينا إيجاد كهنةٍ يقودون المعبد من النَّاحية العقائديَّة.

ابتسم الجد من كلام حفيده العميق، وقال:

ـ فعلًا، هذا صحيحٌ، لعدم معرفتنا الكافية بتفاصيل هذا الدِّين، ولأنَّ الأمر يحتاج لمجهود إضافي.

وأردف قائلًا:

ـ رُبَّما يعتقد النَّاس أنَّ الدِّين خطرٌ على حياتهم، من تلك الحكاية المتوارثة عن حروب أجدادهم مع الدِّيانة المسيحيَّة، التي شرَّدتهم من ديارهم، ولهذا كرهوا المعبد نفسه، وأهملوه.

فسأله أحد الفتية قائلًا:

ـ هل المكان الذي تُوجد به ديار أجدادنا بعيدٌ من هنا؟.

لم تكن للجد إجابةٌ مُحدَّدة، لأنَّ ديار الأجداد تُوجد في الشَّرق، وفي الغرب، ولكنَّه أجاب قائلًا:

ـ يجب علينا أن نخرج من هذا الفضاء الضَّيق، ونبحث في الفضاء الواسع عن ديار أجدادنا مهما ابتعدت عنَّا مسافتها، فربما تكون أقرب إلينا مما نتوقعه.

فردَّ عليه فتى آخر، فقال:

ـ يُمكننا أن نذهب ـ نحن الفتية ـ ونبحث عن هذا المكان، لأنَّ لدينا طاقةً كبيرةً تجعلنا نسافر لعدة شهورٍ دون أن نشعر بالتعب.

لم يكن هذا ما يُفكر به الجد في الوقت الرَّاهن، فقال لهم:

ـ من الأفضل لنا ـ في الوقت الرَّاهن ـ أن نُرتب أمورنا جيدًا، ثمَّ نُدرب شبابًا تجاوزوا الخامسة والعشرين عامًا لهذه المهمَّة الشَّاقة، التي تحتاج إلى قوة البدن، والمقدرة على التَّحمل والصبر.

لاحظ الجد في وجوه الفتية علامات عدم الرِّضا لهذا الكلام، فأردف يشرح لهم أهميَّة دورهم في المستقبل، قائلًا:

ـ أمَّا أنتم فيجب عليكم أن تنالوا قسطًا من التَّعليم، والتَّدريب الجيِّد على القتال، ثم تذهبون إلى تلك الدِّيار لتلقي تعليمٍ إضافيٍ،

وتدرسون أحوال النَّاس هناك، استعدادًا لمهاجمتهم.

أدخل هذا الكلام ـ من جدٍ خبيرٍ بفن التَّعامل مع الأجيال، ولديه من الحنكة ما يكفى لرسم مُخططات المستقبل لقومه ـ السُّرور في قلوب الفتية، وزادهم ثقةً بالنفس، فتحدَّث تويو نيابةً عن أصدقائه، فقال لجده:

ـ نحن جاهزون لأداء مهامنا، فيُمكننا أن نبدأ من الغد في تلقي التَّعليم، والتَّدريب على القتال في الوقت نفسه.

وافق الجد على كلام الفتية المتحمسين واسترسل قائلًا:

ـ يجب ـ كذلك ـ من الغد، أن نكوِّن مجلس شورى من شيوخ المدينة والقرى المحيطة بها، وتكون لديه الصَّلاحيَّة المطلقة للبت في كُلِّ الأمور المهمة التي تُعنينا في الوقت الرَّاهن، على أن تتولوا أنتم المهمة في المرحلة القادمة، بعد أن يشتد عودكم، وينضم إليكم فتيةٌ آخرون من المنطقة.

إلى هذا الحد خلص الحوار في مسيرة تعاقب الأجيال من جيلٍ إلى جيل..

أرسل الجد مبعوثه يدعو شيوخ الأنج إلى اجتماعٍ مهم عُقد في منزله، في ليلة اكتمال القمر، فعرض عليهم محتويات الصُّندوق الخشبيٍ، وقرأ عليهم ما كتب في ظهر الخنفساء المقدسة، أصيب

الحاضرون بشيء من الاندهاش، فمنهم من استوعب ومنهم من لم يستوعب ومنهم من بدأ في استيعاب الأمر، وبعد برهة من الوقت راحوا يتناقشون في تفاصيل تلك الأسرار التي ستُغير مجرى حياتهم العبثيَّة، بأن يكون لها هدفٌ مُعين يُنظم النَّاس داخل هرم واحدٍ، لتحقيق هذا الهدف. سرد لهم الجد نتيجة حواره الطَّويل مع الفتية المتحمسين لنُصرة أهاليهم، وتحقيق حلم أجدادهم الأولين. وافق الشُّيوخ وأمَّنوا على تلك النتائج، وتمَّ تكوين مجلس الشُّيوخ برئاسة جد تويو، على أن تُمثَّل كُلُّ قريةٍ بشيخٍ واحدٍ فقط، أمَّا المدينة فتُمثَّل بشيخين. من مهام هذا المجلس: توحيد النَّاس تحت رايةٍ واحدةٍ، وهدفٍ واحدٍ لا غير، واختيار وتجهيز الشَّباب اليافع الذين سيطوفون العالم الخارجي لجمع المعلومات عن تلك المناطق. ومن صلب مهام المجلس أيضًا إعداد، وتجهيز الجيش، وتمويله بفرض ضريبةٍ على السُّكان، تؤخذ منهم لأول مرة، منذ أن حطوا رحالهم في هذه الأرض الجرداء. وكما يمكن للمجلس إضافة عددٍ من الفتية الأذكياء إلى مجموعة الفتية الحاليَّة، على أن تكون المجموعة كُلُّها تحت رعايته، حتى يشتد عودها وتستطيع في الأعوام القادمة تحقيق ما يكلفون به من مهام..

بدأ مجلس الشُّيوخ في عموم منطقة الأنج تنفيذ مهامه بدقة أهل الخبرة، فتجمَّع النَّاس حول الهدف المرجو إيذانًا بالتَّحول القادم، الذي بدأ يشق طريقه بقوة بين منعرجات تلك القرى الصغيرة، التي تقبع خلف أوتاد الكون الضخمة، فلا تراها العين المجردة إلا عن قرب، ولأوَّل مرَّةٍ منذ أن فارق القائد توتو هذه الدنيا الفانية، واندثرت معالم المعبد الصغير بتفاصيله الكثيرة، وتلاشت قدسيته من حياتهم العامة، شعر الأنج بأنَّ هناك شيئًا مُهمًا يُوحدهم في هذا الكون الشاسع يستحق التضحية من أجله، فبذلوا له الجهد والعرق، ووفروا له المحصول، فبدأوا يحسون أنَّ طعم الحياة بات مُختلفًا بهذا الشَّيء، وأنَّ الحياة لا تستقيم إلَّا أن تكون تحت رايةٍ واحدةٍ، ويكون هناك شيءٌ من النُّظم التي تُسيِّر حياة النَّاس، وتتحكَّم فيها لتسير من الأفضل إلى الأفضل.

لم يكن الدِّين مُهمًا ـ بالنِّسبة إليهم ـ ولا ضمن تلك النُّظم التي تُنظم حياتهم، لخوفهم المتوارث من صراع الأديان للتحكُّم في مصائر النَّاس..

أُرسلت البعثات الاستكشافية من أولئك الشباب الأشداء البالغين لسن الرشد بعد أن تلقوا تدريبات كثيفة في قوة التحمل والمثابرة على الشدائد والبطش بالأعداء في النزال.

فمكنهم تكوينهم الجسماني الخشن الذي تكون في تلك البراري الموحشة، على تحمل المخاطر الجسيمة التي مروا بها طوال رحلتهم. فساروا أيامًا وشهورًا على الأقدام وعلى ظهور الدواب، نحو الممالك المسيحيَّة الثَّلاثة، وكذلك نحو الشَّمال والشرق، فرأوا عجائب الدنيا السبع، من المباني الحسان كالمعابد والأهرامات والحصون، والحدائق الخلابة بسواقيها الشاخة على ضفاف النهر، والحسناوات من الصبايا اليافعات اللائي يسرَّنَّ العين، والمناظر التي لم تخطر ببالهم ولا حتى لم يحلموا بها في منامهم، ولولا قوة إيمانهم بقضيتهم التي تكبدوا المشاق لأجلها وتلك النظرات من السكان المحليين التي تشعرهم بأنهم غرباء في بلاد جميلة، لسكنوا تلك الديار وباعوا تلك المهمة التي جاءوا من أجلها من تلك الديار الموحشة..

عندما عادت تلك البعثات من مأموريتها، التي استغرقت عدة سنين، عادت بكمٍ هائلٍ من المعلومات عن تلك الديار الجميلة والعجيبة، وأصبحَ مجلس شيوخ الأنج لديه معرفةٌ لا بأس بها بتلك العوالم، التي كانت يومًا ما، مجهولةً تمامًا بالنِّسبة إليهم. كلف مجلس الشيوخ عددًا من أفراده، للاتصال بمجتمعات البجة القريبة منهم نسبيًا، فتعاملوا معها تجاريًا مع الحذر الشديد. أما

الفتية العائدون من تلك الديار الخيالية بالنسبة لهم، ظلوا يحكون ما شاهدوه من عمارة المباني المنقوشة جدرانها برسومات تعبر عن أساطير سكانها، والبساتين المثمرة على ضفاف نهر النيل الخالد، والحسناوات السمر ذوات الضفائر البلورية، ظلوا يحكون ذلك لسنين طويلة، ويضيفون إليها بعض مغامراتهم التي لم تحدث كتوابل للحديث، فيعجب بهم رفاقهم ويسمعون لهم بإنصات، كأنما يتحدثون عن مخلوقات خرافية هبطت من الفضاء البعيد إلى تلك الديار العجيبة..

لما بلغ القائد تويو، وأقرانه العشرة سن العشرين من أعمارهم، سمح لهم مجلس الشُّيوخ بالسفر في رحلةٍ معرفيَّةٍ، واستخباراتيَّةٍ إلى تلك الممالك المسيحية، دامت قرابة العامين ونيف، فكانت المجموعة تمكث في كل مملكة مدة عشرة أشهر، وفي المدة التي قضوها في مملكة مكوريا، جلس القائد تويو واثنان من رفاقه ثلاثة أشهر كاملة في بلدة برقيل، وفي يوم ربيعي كانت فيه أمواج النهر هادئة، تجول القائد تويو بمفرده في شوارع البلدة يبحث عن منزل أجداده بالقرب من المعبد، الذي دخله دون أن يشعر به أحد، فندهش لجمال تلك الرسومات المنقوشة على جدران المعبد، فتأمل وجوه الأبطال المرسومين في أسفل الجدار ساعة

انتصارهم على الأعداء، وحدث نفسه قائلًا: «يا ترى أي من هؤلاء الأبطال هو ذلك الجد الذي كتب وصيته على ظهر تمثال الخنفساء المصنوع من أصداف النيل»، فخرج من المعبد دون أن يجد إجابة شافية لسؤاله، فوجد عددًا كثيرًا من المسلات النوبية تقف سامقة في ساحة المعبد، فعرج على واحدة منهن فقرأها: «إنني لا أكذب، ولا أعتدي على ملكية غيري، ولا أرتكب الخطيئة، وقلبي ينفطر لمعاناة الفقراء، إنني لا أقتل شخصًا دون جرم يستحق القتل، ولا أقبل رشوة لأداء عمل غير شرعي، ولا أدفع بخادم استجارني إلى صاحبه، ولا أعاشر امرأة متزوجة، ولا أنطق بحكم دون سند، ولا أنصب الشرك للطيور المقدسة، أو أقتل حيوانًا مقدسا، إنني لا أعتدي على ممتلكات المعبد ـ الدولة، أقدم العطايا للمعبد، إنني أقدم الخبز للجياع، والماء للعطشى، والملبس للعري، أفعل هذا في الحياة الدنيا، وأسير في طريق الخالق، مبتعدًا عن كل ما يغضب المعبود، لكي أرسم الطريق للأحفاد الذين يأتون بعدي، إلى هذه الدنيا وإلى الذين يخلفونهم وإلى الأبد»، فقال موجهًا حديثه إلى صاحب المسلة الذي نقش اسمه في أسفلها: «أنت حقًا قائد عظيم يا جاليوت بأنجي، فلك وللعظماء من أجدادنا التحايا»، فترك المكان وهو يشعر بالفخر،

فتوجه نحو النهر سيرًا على قدميه، فجلس القرفصاء على رمال الشاطئ يناجي النهر بأن يكشف له أسرار أجداده القديمة..

كان القائد تويو يفكر في شيء ما، وهو يتمشى جيئة وذهابًا على رمل الشاطئ، وعندما نوى الرحيل عن المكان رأى صبيتين جميلتين تتمشيان على مهل، قبل أن تقفا لرؤية هدوء النهر، فوقف يتأمل على بعد عدة خطوات منهما، هذه الملامح التي رآها من قبل، كانت إحدى هاتين الصبيتين تشبه تلك الحسناء التي رسمت على جدار المعبد، فخفق قلبه وهو ينظر إليهما ويتمتم كما الأخرس الذي يريد أن يقول شيئًا فيقلبه النطق، فضحكتا وهما تتهامسان وتنظران إليه كأنهما تنظران إلى الضفة الأخرى من النهر، تماسك القائد تويو ورتب نفسه من جديد، فعادت إليه جرأته المعهودة، فقرر أن يتحدث معهما، ولما تحدث إليهما لم تنطق تلك الصبية التي تشبه حسناء المعبد بحرف واحد، فكانت رفيقتها هي التي تجاوب وتسأل، فعلم منها أن حسناء المعبد هي ابنة عمدة البلدة وهي ابنة عمها، فهما تتجولان في شاطئ النيل بصورة شبه يومية..

عاد القائد تويو إلى مقر إقامته وهو سعيد بهذا النهار الهادئ، فحكى لصديقيه تفاصيل يومه وسر هذه السعادة التي تغمره،

فقال لهم:

ـ إيه رأيكم، غدًا نزور المعبد ثم نذهب إلى شاطئ النيل لتريا الجمال على أصوله.

وافق صديقاه على أن يدخلا المعبد في نهار الغد دون أن يراهما أحد، بيد أنهما اختلفا في الذهاب إلى شاطئ النيل لرؤية تلك الصبيتين، فالذي اعترض علل اعتراضه قائلًا:

ـ بأن عشق ابنة العمدة سيكشف هويتنا كغرباء وسيقودنا ذلك إلى مقصلة الإعدام.

أما الذي وافق على أن يمضى القائد تويو في عشقه هذا حتى يتزوج ابنة العمدة فعلل قائلًا:

ـ يمكننا أن ندعى بأننا أتينا من مملكة نوباتيا لنستقر في هذه البلدة.

وأضاف قائلًا:

ـ فيمكن من خلال هذه الزيجة أن نستلم مقاليد حكم هذه البلدة، التي فر منها أجدادنا الأولين، لتكون بداية انطلاقتنا لحروبنا القادمة.

في اليوم التالي دخل القائد تويو وصديقاه المعبد دون أن يراهم أحد، فعثروا على سوط الأنج المقدس خلف أحد التماثيل

البرونزية فحمله القائد تويو معه كتذكار وجداني من رائحة الأجداد، فقال:

ـ الآن قد علمت لماذا نحمل معنا دائمًا السوط في حلنا وترحالنا.

ثم ذهب الأصدقاء الثلاثة إلى النهر، فالتقى القائد تويو بالصبيتين، بينما ظل صديقاه يشاهدان المنظر من على البعد. تكررت اللقاءات بين القائد تويو والصبيتين أكثر من مرة، حتى بدأت الصبية التي تشبه حسناء المعبد تتخلى عن خجلها قليلًا فتشارك القائد تويو وابنة عمها الحديث وهي تنظر إلى أعماق النهر، فترى صورة هذا الفتى الذي دغدغ فؤادها منذ أن رأته يتلعثم أمامها في الكلام، رأتها تتمايل مع أمواج النهر كوردة ريحان تتراقص بها الرياح في حديقة جدها الظليلة، هذا الفتى الغريب عن بلدتهم، فتمنت أن يكون فارسًا أميرًا أتي ليخطفها إلى مدينته البعيدة، فتنجب منه ثلاثة فرسان أقوياء وثلاثة صبايا يحملون رقتها، فتحلب لهم كل صباح من بقرة العائلة حليبًا دسمًا، يساعدهم على النمو ويغرس فيهم المودة والألفة، ويحفظهم من شر العين المتربصة بهم..

وفي ذات النهار الذي اقتنع فيه رفيق القائد تويو المعترض بفكرة زواج القائد من تلك الحسناء، قرر القائد تويو السفر من

بلدة أجدادهم إلى العاصمة دنقلا، فقال لصديقيه:

ـ إن جلست أسبوعًا آخر في هذه البلدة فإنني لن أغادرها أبدًا، فحب تلك الصبية الحسناء يمتلك قلبي يومًا بعد يوم حتى كدت أن أصارحها بحقيقة أمري، لولا أنني سمعت صوت جدي يقول لي: «نحن في انتظار عودتكم بخير يا بني». فأردف قائلًا:

ـ من أجل الحلم الذي غير مجرى حياة أمتنا، سأقتل دقات قلبي العاطفية وإلى الأبد.

وفي المساء سافر القائد تويو ورفيقاه إلى العاصمة دنقلا، فالتحقا برفاقهم الذين كانوا ينتظرون عودتهم بسلام، على أحر من الجمر. وبعد عدة شهور عادت المجموعة كما جاءت إلى مسقط رأسها..

وفي نهاريات الأيام التالية؛ كما هي عادة تلك الصبيتين الجميلتين، منذ أن تكون الوعي لديهما بمعرفة تفاصيل الحياة الغامضة، كانتا تتجولان على شاطئ النهر سليل الفراديس، الذي ما عاد القائد تويو يأتي إليه، فتاهت تلك الصبية التي تشبه حسناء المعبد، ما بين انتظار محبوبها

ودروب الحياة الطويلة، على أمل أن يعود إليها ذلك الفتى

الذي عشقته في ذات نهار..

عاد القائد تويو وأقرانه العشرة إلى ديارهم سالمين، من تلك الممالك المسيحية التي نالوا فيها قدرًا عظيما من التَّعليم والمعرفة، وأصبحوا أكثر درايةً بعدوهم، فالتقوا برئيس مجلس الشيوخ في اجتماع مطول، فعرف منهم قصة حفيده تويو مع ابنة العمدة، فلم يعاتب الجد حفيده، فقال لهم الكاهل الخبير بهوى النفس وتقلباتها:

ـ إن الإنسان لا يستطيع أن يمنع قلبه من أن يعشق ما تعجب به العين، ولكنه في آخر الأمر يمكن أن يتحكم في مشاعره ما دام هذا العشق سيرمي به في التهلكة.

كان القائد تويو يتوقع أن يعاتبه جده بطريقة ما، فدافع عن نفسه مازحًا فقال:

ـ عندما أحسست بأن الهوى شغل القلب والعقل، هربت من تلك البلدة التي فر منها أجدادنا قبل ألف عام.

ثم أردف قائلًا:

ـ لو مرت علينا حسناء المعبد في اجتماعنا هذا، لانقطع الحديث وانفض السامر دون كلمة وداع.

فضحك من ضحك وغنى من غنى لبنت العمدة. تدربت

المجموعة لعام كامل على كيفية السيطرة على النفس وغرازها، والإيمان بمقدرة تحقيق الهدف المنشود، ثم انخرطوا في التَّدريبات العسكرية الشاقة..

عندما بلغ تويو سن النُّضج الكامل عُمِّد بماء زهرة اللوتس، وعُين قائدًا عامًا على عموم البدو الوثنيين، وشكَّل مع أقرانه العشرة مجلس أمراء الحرب، وبعد ثلاثة أعوام من هذا الحدث، كان جيش البدو جاهزًا للقتال. عندما شنَّ جيش البدو الوثني أُولى غاراته ـ تحت راية القائد تويو ـ على مملكة نوباتيا في الشَّمال، كان الجيش النُّوباتي ـ في تلك الأيام ـ قد خرج ـ بدوره ـ إلى أقصى الشَّمال لمحاربة أعدائه الرُّومان، فتمكن جيش الأنج في غضون أيام معدودةٍ من اجتياح مدينة كورسكو التي تقع على الشَّط الشَّرقي لنهر النِّيل، وتمكنوا من السَّيطرة على حاميتها العسكريَّة بُرهة من الزَّمن، ثمَّ شنوا غاراتهم على المدن والقرى المجاورة لها، فأرعبوا الكنائس، وسيطروا على مبانيها، ففزع الأهالي منهم، وارتجف النَّاس في الطُّرقات من خشيتهم، لأشكالهم البدوية الخشنة، وأطوالهم الفارعة، وأجسادهم مفتولة العضلات، فسموهم البلو(1)..

(1) البلو - البدو.

شنَّ البلو غاراتٍ مُتتاليةٍ على مملكة نوباتيا، ثم على مملكة مكوريا، فكانت أولى محطاتهم القتالية على بلدة برقيل، التي لم تصمد كثيرًا في وجه مقاتلي البلو المتحمسين للقتال بشراهة، منذ أن قرأوا نصوص الجد توتو المدونة في تلك المجلدات المهلهلة، فسيطروا على البلدة دون كثير عناء. توجه القائد تويو إلى المعبد الكبير جهارًا نهارًا في هذه المرة، ثم توجه إلى شاطئ النيل فوجد تلك الصبية التي تشبه حسناء المعبد وابنة عمها، تتجولان كما هي العادة على شاطئ النيل، رغم المخاطر التي تحيط بالبلدة العتيقة، فتفاجأتا أن من تعشقه بنت العمدة وانتظرته لسنين طويلة دون كلل أو ملل ليعود إليها زوجًا ليخطبها من والدها، عاد ـ ويا للحسرة ـ ليقتلع حكم والدها من على البلدة، وعندما علم القائد تويو أن تلك الصبية الحسناء، انتظرت عودته ليعشقها كأميرة المعبد المقدس، رق قلبه إليها كعصفور مهاجر من منفى إلى وطنه، فنسى وصاية جده، التي تدربوا عليها لعام كامل، فعرض عليها الزواج.

بكت تلك الصبية الحسناء لحظها العاثر، فأوقع قلبها الصغير الذي لا يتحمل قوة الصواعق الكهربية، في عشق قائد البلو، فركضت مسرعة مع ابنة عمها نحو منزلهم دون أن تجاوب على

طلب القائد تويو..

في غرفتها تشاورت الصبية الحسناء طوال الليل مع ابنة عمها، في أمر الزواج من محبوبها الوثني، فكانت كل قراراتهن تأتي بنتيجة واحدة هي الرفض القاطع. بعد شروق الشمس بقليل قدم القائد تويو إلى منزل عمدة البلدة الفاقد لسلطته الشرعية، ليطلب يد ابنته الحسناء للزواج، لم يكن في مقدور العمدة رفض طلب القائد الذي يحتل جيشه بلدتهم، وكذلك كان من الصعب على قلبه أن يترك ابنته تذهب مع هذا الوثني إلى المجهول. أمهل القائد تويو العمدة الوقت ليجيبه على طلبه وانصرف. جلس العمدة يتوسد الأرض في حيرة من أمره، فخرجت إليه ابنته مع ابنة أخيه وأكدتا له أن أمر هذا الزواج لن يحدث إطلاقًا. لم يستطع العمدة الرد عليهما من جراء الصدمة، ولعدم مقدرته على الدفاع عن ابنته الوحيدة، إذ أصر قائد هذا الجيش المنتصر عليهم بأن يتزوجها..

على رمال شاطئ النيل ملهم الشعراء والفلاسفة، كان اللقاء الأخير بين القائد تويو ومحبوبته، فطلبت منه اعتناق الديانة المسيحية إن كان جادًّا في أمر الزواج هذا، وأكدت حبها له وأنها على استعداد للذهاب معه إلى ديارهم، لتقضي بقية عمرها في

عشها الزوجي الجميل

وتفرخ فيه البنين والبنات، وتحلب لهم من بقرة العائلة حليبًا كامل الدسم يقويهم على مجابهة الحياة، وقالت له:

ـ سأعمل بكل إخلاص وود في نشر الديانة المسيحية بين أهلك الوثنيين.

قبل أن ينطق القائد تويو بكلمة واحدة سمع صوت جده يأتيه مع خرير ماء النهر فيقول له: «إن العشق الحقيقي الذي بدون بنود تاج الدنيا يا بني، فتحكم في مشاعرك ما دام هذا العشق سيرمي بك وبنا في التهلكة يا أيها القائد الهمام». فعاد القائد تويو إلى واقعه قبل أن يستسلم لمشاعره العاطفية ويوافق على طلب محبوبته، فرد عليها قائلًا:

ـ أرفض تمامًا فكرة أن أصبح مسيحيًا، ولكنني أوافق على أن تذهبِ معي إلى ديارنا دون أن تبشري أهلي بالدين المسيحي، وإنني على استعداد بأن أوفر لك كل ما تحتاجينه لتعيشي بيننا ملكة متوجة على ديارنا.

كانت هذه النقطة بالتحديد هي مسار اختلاف الحبيبين، اللذين التقيا في ظل تلك الظروف المناخية الملبدة بغيوم هواجس العقيدة والحرب، فأصر كل منهم على رأيه دون أن يراعي مشاعر حبيبه

أو يترك العنان لقلبه العاشق بأن يحن ويستجيب لرغبة الآخر، فنزف قلب كليهما دمًا سخيًا ساخنًا لو هبط على الأرض لروى زهرة نبتت على رمل هذا الشاطئ الحزين، فسميت باسم هذا الموقف الرومانسي المشحون بالتضحيات الجسام..

بعد أسبوع من هذا اللقاء العاطفي المحبط للعشاق الذين يتمنون أن تكون خاتمة كل القصص العاطفية سعيدة، رحل جيش البلو عن بلدة برقيل دون أن يودع القائد تويو محبوبته حتى لا ينكسر أمامها ويوافق على طلبها، فكان كل ما يعنيه في تلك اللحظة هو قيادة أهله لفرض سيطرتهم على هذه الممالك المسيحية. كذلك لم تأتِ تلك الصبية الحسناء لتودع محبوبها حتى لا تلين في موقفها ويأخذها قلبها الحائر للارتحال معه، فكانت ترى أن أهلها ودينها يستحقان هذه التضحية..

واصل البلو كذلك شنَّ غاراتٍ مُتتاليةٍ على مملكة الوديا، وعلى الرُّومان في الشمال، فذاع صيتهم، وأصبحوا قوةً ضاربةً لا يُستهان بها، فقد كانوا مُحاربين أشداء، لا يهابون القتال، شرسي الطِّباع، ينقضون على عدوهم كما النَّسر الجارح، فكانوا بعد انتصارهم على الجيوش، ودخولهم المدن والقرى، يجلدون النَّاس بسوط الأنج، الذي يحملونه معهم، كما كان يفعل أجدادهم في سابق

الزَّمان، ولكنهم كانوا لا يغسلونهم بماء النِّيل لإكمال مراسم تنقيتهم من المسيحيَّة، لعدم إيمانهم بمبادئ ديانة أنجي آمن، فكان كُلُّ ما يُهمهم هو اقتلاع الدِّيانة المسيحيَّة من على الوجود، وفرض سيطرتهم ـ بالقوة ـ على تلك الممالك، وعلى الرُّومان، حتى يُصبحوا هُم الحُكَّام، وتدين لهم تلك الأراضي الشَّاسعة من وادي النيل بالولاء، فبدأت مجالس الأهالي ـ في تلك المدن والبلدات المسيحيَّة ـ تروى حكايات الأنج القديمة من جديد وبصيغٍ مُختلفة..

14

بلغت مملكة الوديا من الازدهار ما بلغت، إبَّان حُكم الملك أدار، الذي دعم الكنيسة بالمال والذَّهب والفضة، والبرونز والتي ـ بدورها ـ ترجمت الكتاب المقدَّس باللُّغة النُّوبية، وأصدرت كُتيباتٍ تشرح فيه المذهب اليعقوبي على اللهجة الألودية، لتُسهِّل على عامة الشَّعب فهم الدِّيانة الرَّسمية للمملكة، بلغتهم الأم. عمل الملك على تطوير العاصمة سوبا الجميلة، التي بها مقر إقامته في بلاط القصر الملكي الفخم، الذي به تاج العرش الفضي المنقوش عليه رمز المملكة، فيرتديه ملكًا متوجًا على قلوب الأهالي الذين أحبوه لتفانيه في خدمتهم، فيحمل معه الملك الصولجان النوبي بشكله القديم، كناية عن القوة والسيادة والحظ السعيد، وبها أيضًا كاتدرائيات العاصمة المركزية، التي ترسل إشعاعها الديني لكل مدن المملكة الأخرى، وتفتح أبوابها للمصلين في كل الأوقات، وبها كذلك دواوين الحكومة الملكية

التي وظفت عشرات الموظفين والعمال في الخدمة المدنية، الذين سهروا واجتهدوا على رسم الخطط التي تسهل الصعاب بالنسبة للمواطن البسيط، فنامت العاصمة سوبا الجميلة ـ كصبية في عمر الزهور ـ في لياليها الطويلة هادية راضية..

عمل الملك أدار على تنمية الولايات وازدهارها اقتصاديًا، والاستفادة من إمكانياتها وطاقتها البشرية، وتوظيف مميزاتها في تطوير نفسه بنفسها. لتدفع عجلة التنمية في المملكة من الأفضل وإلى الأفضل، ولتسهم في زيادة الدخل القومي وتنوعه، فيعاد توزيعه من جديد على ولايات الأقاليم المختلفة، وفي أعمال البنية التحتية الشاملة.

اهتم الملك أدار بولاية التَّكاكي بشكلٍ خاصٍ، لما تُمثله من أهميَّةٍ في تلك الأيام. تلك الولاية التي تقع بمقاطعة التَّكاكي في شمال المملكة، على الحدود مع المملكة النُّوبية المتحدة، عند انحناء نهر النِّيل، حيث تكثُر بها الجزر الخلابة، والمدن الإستراتيجيَّة؛ فعيَّن الملك أخاه الأصغر الأمير أدور حاكمًا على تلك الولاية المهمَّة، التي شهدت هجراتٍ مُتتاليةٍ من سُكان وملوك المملكة النُّوبية المتحدة، وكان ذلك في عهد الدُّويلات الإسلاميَّة التي قامت في شمال وادي النِّيل، بعد ميلاد السيد المسيح بزمن ما، فكثرت

الهجرات الكبيرة من هنا وهناك..

بعد انتصار الجيش العربي المسلم، الذي جاء فاتحًا للقارة السَّمراء، لنشر الدِّين الإسلامي، على جيش الرُّوم البيزنطي، تقهقر الرُّومان إلى مدينة إسطنبول؛ فحلَّ العرب مكانهم في شمال الوادي، فعينوا قائدهم حاكمًا عامًّا على المنطقة التي أصبحت ولاية تابعة للدولة الإسلامية في الحجاز. أمَّا مدينة الإسكندرية، التي غالبيَّة سُكانها من الأقباط أتباع الدين المسيحي، فدفعوا الجزية للمُسلمين، وأصبحوا تحت إمرتهم وتحت حمايتهم. بعد أن استقرت أوضاع العرب في الشَّمال، نزحوا صوب الجنوب، فاتحين؛ فدخلوا في حروبٍ شرسةٍ مع النُّوبيين، انتهت حلقاتها بما يُعرف باتفاقية البقط الشهيرة. التزم كلا الطرفين بتنفيذ بنودها دون أن يكون هناك أي نوع من العدائيات، إلا بعض الاحتكاكات البسيطة التي كانت تحدث بين رعايا الدولتين فسرعان ما كانت تحل وديا، مع سيطرة كل جانب على أمن الحدود وعلى غرائز النفس البشرية، واستمر هذا الحال طويلًا..

بعد حين من الزمان، تولى أمر المسلمين نفرٌ من سكان آسيا الوسطى، ومنطقة البلقان، وغيرهم من سُكان تلك الجهات الواقعة خلف بحر الروم، لم يعد شمال الوادي مجرد ولاية تابعة

للحجاز، في تلك الفترة التي اعتنق فيها الإسلام كثيرًا من العجم، بل أصبح دولة إسلامية قائمة بذاتها، وأحيانًا أخرى يصبح ولاية تابعة لتلك المناطق التي أتى منها أولئك النفر، في تلك الأعوام بدأت الحروب تتوالى بين الدُّويلات الإسلاميَّة في الشمال، ومملكتي نوباتيا، ومكوريا المسيحيتين في الجنوب، أدى ذلك إلى اتحادهما في زمن الحرب، ليصبحا مملكة واحدة، عُرفت بالمملكة النُّوبية المتحدة أو مملكة مكوريا المتحدة، حتى تكون لديهم المقدرة والقوة، لمجابهة أولئك النفر الوافدين من مناطق آسيا الوسطى والبلقان. كان ملوك وأمراء المملكة النُّوبية المتحدة، عندما ينهزمون في إحدى حروبهم الطَّويلة مع الدُّويلات الإسلاميَّة، يلجأون تلقائيًا إلى أرض ولاية التَّكاكي بمملكة الوديا التي تقع على الجنوب منهم، والتي كانت بعيدةً عن نيران الحرب الضروس، وفي حالة سلم شبه دائم مع المسلمين لبعدها الجغرافي..

في تلك الفترة، التي قادة فيها الملك أدار إصلاحاته الاجتماعيَّة، والتَّنموية، نشطت تجارة الوديا مع الدولة المملوكية في الشَّمال، ومع الممالك التي تقطن غرب القارة السمراء، وشرقها، وجنوبها، ومع أولئك الذين يقطنون خلف البحار الكبيرة، فازدهرت مدينة بلاق التُّجارية، التي تقع منذ عهد قديم عند ملتقى طرق تجاريَّة،

أصبحت لها أهميتها في ذلك الزَّمن، كما ازدهرت مدن شندي، ونوابية ـ وغيرهما من المدن الصغيرة التي ما كانت يومًا ما تمر بها حتى قافلة تائهة في الصحراء، مُستفيدةً من حالة عدم الأمن التي تعيشها مدن المملكة النُّوبيَّة المتحدة التُّجاريَّة، والتي كانت تُسيطر فيما مضى على تلك الطُّرق التُّجارية. فراجت صناعات الوديا المحليَّة خارجيًا، خاصةً التي تتحكَّم فيها الدَّولة؛ مثل الذَّهب والفضة، والملح، والأواني الفخارية، وغيرها من المنتجات المهمة التي تتخصص فيها مدن بعينها، كما وفدت كثيرٌ من السِّلع الخارجيَّة إليها، فكانت تتم إعادة تصديرها إلى مناطق أخرى. فنشأت طبقة من التجار الأثرياء أسهموا في بناء الدولة..

في أحد نهاريات شهر بؤونة(1) السَّاخن؛ والشَّمس تُسقط أشعتها العمودية على العاصمة دنقلا، فتطرد فصل الربيع الندي، فيمضي في حال سبيله تاركًا المكان لفصل الصيف ذي الروائح النفاثة. علا صوت الباعة المتجولين بالنداء في أحياء وأزقة المدينة، في وهج الصَّيف الحار والخانق، وهم يُروجون سلع التُّجَّار الكاسدة، بسوق المدينة الخالية من الزبائن، فيعرضونها بأسعار زهيدة لعلهم يسوقونها. في تلك الأيام الصعبة عانت المملكة

(1) بؤونة = 26/5 الى 24/6 .

النُّوبية المتحدة أشد العناء، بسبب تدهور تجارتها الخارجيَّة، فامتلأت معظم الأسواق بالمحاصيل، والمنتجات المحليَّة، فكان يُصدَّر قدرٌ كبيرٌ منها قبل أن تشتعل نيران الحروب إلى الأسواق البعيدة، التي كانت ـ بدورها ـ تُصدِّر مُنتجاتها إلى أسواق العاصمة دنقلا، فعانت من شُح في هذه المنتجات، فكان هذا عاملًا آخرًا لإحجام الناس عن ارتياد الأسواق، ولهذا كان لابد من إيجاد حل آخر من قبل التجار، يكون أكثر جدوى لإعادة أسواق المدن الكبيرة بالمملكة إلى سابق عهدها..

في ذلك النَّهار السَّاخن، عقد الملك النُّوبي سامون اجتماعًا مهمًّا مع وزرائه، وأمراء الجيش، والقساوسة، وكبار التُّجار، للبت في علاقة مملكتهم مع هؤلاء المماليك الذين يقطنون في الشَّمال. تحدَّث التاجر كلينج، كبير التُّجار وممثلهم، فقال:

ـ إنَّ الكساد والرُّكود حل بأسواقنا الكبيرة منها والصغيرة بسبب الهجمات المتتالية، التي تأتينا من الشَّمال؛ فأفقدت مُدننا الأمن والأمان، فتحوَّلت جُلُّ الطُّرق التُّجارية إلى مُدنٍ أخرى في مملكة الوديا الجنوبيَّة، فبذلك نعجز ـ نحن التُّجار ـ في المساهمة بدفع الجزية لحُكَّام المسلمين.

أمَّن وزير الخزانة على كلام كبير التُّاجر، فقال:

ـ إنَّ الحالة الاقتصاديَّة للبلاد تمر بفترةٍ حرجةٍ للغاية، وعجزت الخزانة عن تمويل الاحتياجات الضَّروريَّة للمملكة، وبالتَّالي ليس في مقدورها تحمل أعباء إضافيَّة بدفع هذه الجزية.

ثم أردف وزير الخزانة قائلًا:

ـ إن سكان الشمال لديهم فترة من الزمن عطلوا بنود الاتفاقية التي تنص على أن يعطونا الكمية المقررة عليهم من المنتجات والمحاصيل وقناني المشاريب المنعشة.

أضاف التاجر كلينج في السياق نفسه فقال:

ـ كنا نصدر لهم بعض السلع النقدية ذات العائد المجزي فما عادوا يستوردونها منا، كما كنا نجلب منهم بعض المواد التموينية فتوقفوا عن توريدها لنا.

تكلَّم القدِّيس قرقي، مُمثل كنائس الدر قائلًا:

ـ إنَّ أمر دفع الجزية للمُسلمين كُلَّ عامٍ يُنتقص من سُلطة الكنيسة، وهيبة المملكة.

شاركه ـ في هذا الرَّأي ـ القديس يُوحنا القبطي، مُمثل كنائس دُنقلا العجوز، فأردف قائلًا:

ـ إنَّ الأهالي يُصابون بالإحباط كُلَّما شعروا أنَّهم تحت رحمة الآخر المختلف عنهم.

ويبدو أنَّ رأي الكنيسة تم الاتفاق عليه مُسبقًا بين قديسي، وقساوسة الكنائس، وهو الحرب، ولا شيء غير الحرب. أمَّا سوكرتي(1) الجيش فتحدَّث قائلًا:

ـ لدينا إمكانيَّة لخوض حربٍ فاصلةٍ مع أولئك الوافدين في الشَّمال، والقضاء عليهم نهائيًا، ودحرهم خارج البلاد.

كان الملك سمامون يُفكِّر في أمر هذه الحرب كثيرًا مع نفسه، فسأل سوكرتي الجيش قائلًا له:

ـ هل يُمكننا تجهيز جيشٍ قويٍ، وفي فترةٍ زمنيَّةٍ وجيزة؟

ردَّ عليه سوكرتي الجيش قائلًا:

ـ الجيش يحتاج فقط إلى تجميعه من الثُّغور، وأودية الولايات، وهنالك أعدادٌ كبيرةٌ من المواطنين لديهم الرَّغبة للانضمام إلى الجيش في حالة الحرب ضد الشَّمال. الأمر يحتاج فقط إلى ثلاثة أشهرٍ ليكون الجيش جاهزًا للقتال.

أسعد هذه الخبر الملك سمامون فسأل وزير الخزانة:

ـ هل يُمكن لخزانة الدَّولة أن تُغطي نفقات الجيش في إعداده، وخوضه للحرب لفترةٍ طويلة؟

أجابه وزير الخزانة قائلًا:

---

(1) سوكرتي - امير الجيش .

ـ يُمكن لخزانة المملكة أن تتكفَّل بنصيب الأسد من تغطية احتياجات الجيش، في حال فُرضت بعض الضَّرائب الإضافيَّة على الرَّعايا.

وجَّه الملك سؤالًا إلى القديسين:

ـ ماذا أنتم فاعلون يا أهل الكنيسة إذا خُضنا هذه الحرب؟

ردَّ عليه القديس قرقي قائلًا:

ـ الكنيسة ستُشارك أمانة الدفاع في تجييش الرَّعايا باسم الدِّين، وستُسهم ماليًا، ومعنويًا في إعداد المقاتلين.

شعر الملك بارتياحٍ نفسيٍّ كبيرٍ، وهو يُوجِّه سؤاله إلى كلينج، مُمثل التُّاجر فقال:

ـ وماذا عنكم أيُّها التُّجار أصحاب البضائع الكاسدة، ما الذي ستُقدمونه لجيشنا الباسل؟

لم يُفكِّر كلينج في رده كثيرًا عندما قال:

ـ أموالنا، وبضاعتنا، ومحاصيلنا كُلُّها تحت تصرف الجيش، فإمَّا النَّصر، وإمَّا الهلاك. لا خيار ثالث لنا.

رأى الملك سمامون الحماس يرفرف في نفوس المجتمعين، واعتلي تقاسيم وجوههم الصارمة، فأعلن من منبره العالي ببهو القصر الملكي في العاصمة دنقلا، الحرب على العدو في الشَّمال، برفضه

دفع الجزية إذ لم تفعل بنود الاتفاقية المعطلة من قبل سكان الشمال. لم تكن الحرب دينيَّة كما يعتقد كثيرٌ من رعايا الدَّولتين، وإنَّما كانت حرب مصالح، وفرض هيمنةٍ على الآخر من قِبل الطَّرفين المتناحرين، دُفع فيهما الأهالي دفعًا إلى الاقتتال، ربما كان سكان النوبة الآمنين في ديارهم هم الأكثر ضررًا..

في نهار كيراقي، من الشَّهر نفسه؛ كان موعد اللقاء الأخير بين الملك سمامون، ومن اجتمعوا معه من قبل، في بهو القصر الملكي، فكان مكان اللقاء الأخير داخل كنيسة الأعمدة بدُنقلا العجوز، تلك التحفة المعمارية الأنيقة والتي كانت ـ فيما مضى ـ معبدًا فرعونيًّا بُني على النَّمط الهندسي القديم، بجانب أعلى ربوةٍ في المدينة، تحفُّها أشجار النَّخيل والدوم الباسقة، وزهرات اللُّوتس المفردات، تُزيِّن مدخله الخارجي تماثيل الكبش، را(1)، كو(2)، ويُحيطها سُورٌ سميكٌ من اللبن، على قرابة خمسين ذراعًا تقريبًا من الأعمدة ذات التِّيجان العتيقة، التي صُمِّمت على الطُّراز النُّوبي الفريد. يُوجد داخل البهو رسوماتٌ على الحائط، فعلى يمين الباب الشَّمالي صورةٌ لميلاد السَّيد المسيح، وتظهر السَّيدة العذراء مريم واضحة العظمة، ويظهر ـ في اللوحة ـ كُلٌّ من زوج مريم،

(1) را - طائر يرمز للخير و العدل (2) كو - الاسد يرمز للقوة و الملك.

والملائكة جبرائيل، ميخائيل، ورفائيل، واقفين، وملائكةٌ أخرى في السِّماء، والرُّعاة: أرتياس، ليكوتس، بالإضافة إلى المجوس: مليكور، بانتورا، تناداسيا، وأخيرًا النَّجمة.

كُلٌّ في مكانه، مع كتابة اسمه كما في كُلِّ اللوحات التي في الكنائس النُّوبي. في الحائط الذي يتوسَّط البهو؛ صورة السَّيدة العذراء مريم، تحمي ملكًا، وهناك صورةٌ للعذراء تحمل طفلها على ذراعها مع نقش اسمها، وفي الحائط الأيسر ـ بجانب الباب الرجال الجنوبي ـ صورة ثلاثة شُبَّان في أتون النَّار، وهُم تحت حماية الملاك ميخائيل، وفي الهيكل رسم الملوك النُّوبيون. كما كانت هناك كتابةٌ هيروغليفيةٌ مطموسةٌ، تظهر بشكلٍ مُتقطِّعٍ في أماكن مختلفةٍ من الجدران، بجانب تلك اللوحات..

بعد أن اتفق المجتمعون ـ في اجتماعهم السَّابق ـ على عدم دفع الجزية، إلا في حال تفعيل كل بنود الاتفاقية المبرمة بين الطرفين من قبل. إعلان الحرب على الشَّمال؛ أتوا إلى الكنيسة لأداء القسم على ذلك العهد، وكذلك للابتهال والتَّضرُّع إلى الرَّب بأن ينصرهم في حربهم القادمة على عدوهم اللَّدود، فكان من ضمن الحضور عددٌ من النِّسوة من بينهن: والدة الملك الأم المقدَّسة، وكذلك كان من ضمن الحضور الأمير جريس والي ولاية مريس الهامة.

صلى الملك ومن معه صلاة القُدَّاس داخل الهيكل، ثم تناول القساوسة القربان، وتبعهم الملك. جيء بعد ذلك بدلوٍ مملوءٍ بالماء من النَّهر الخالد، رتَّل عليه القدِّيس قرقي تراتيل قديمةً بصوتٍ عالٍ، وردَّد من خلفه الحاضرون التراتيل بنغمةٍ سيمفونيَّةٍ عذبة، ثم أعطوا الدَّلو لوالدة الملك، فقرأت عليه الطَّلاسم الملكيَّة المتوارثة مُنذ القدم، وحدَّقت بداخله، فغرفت منه الماء بواسطة قدحٍ فضيٍ، فارتشفت منه سبع مرَّاتٍ، ثم أعلنت مباركتها لأمر الحرب. تناول الملك القدح، وارتشف منه سبع مرَّاتٍ، ثم ناوله للوزير الأوَّل، وهكذا تناول الحاضرون القدح الذي كان يُملأ من الدَّلو كُلَّما انتهى ماؤه، ويرتشفون منه سبع مرَّات. لتدق طبول الحرب التي بدأ غبارها يلوح في الأفق..

انفضَّ الاجتماع، وخرج الرِّجال أولًا، ومن خلفهم النِّسوة يحملن الدَّلو. تناولت والدة الملك الماء من الدَّلو بيديها، ثم نثرته نحو الرِّجال، وتبعها النِّسوة يفعلن الأمر نفسه، وهُنَّ يُزغردن. في مساء ذلك اليوم الساخن تشاور الملك سمامون مع والدته فقال لها:

ـ كيف سنخوض تلك المعركة المصيرية، مع هذا العدو الذي يتحين الفرص للانقضاض علينا.

شرحت له والدته رأيها فقالت:

ـ يجب أن تنشر عددًا من المقاتلين الشرسين على حاميتي كلابشة وبلانة لمناوشة جيش العدو وتقدير حجم قوته

وعدده، وإعطاؤه انطباعًا بأنه كل ما اتجه نحو الجنوب سيقابل أعدادًا متزايدة من المقاتلين الأشاوس وبالتالي يرهق معنويًا.

فرد عليها الملك سمامون قائلًا:

ـ هل تعنين أن ينشر مقاتلو الجيش على كل الحاميات في المملكة، وأن تكون بأعداد متزايدة من المقاتلين كل ما كانت الحامية في اتجاه الجنوب.

أجابت والدته فقالت:

ـ بالطبع لا، هذا ينطبق فقط على الحاميتين اللتين ذكرتهما مسبقًا، أما باقي الجيش فيجب أن يقسم إلى قسمين، قسم يعسكر في حامية صاي الحصينة ليرهق العدو معنويًا ويستنزفه حربيًّا وبشريًّا، والقسم الأكبر يعسكر على بعد سبعة مدن شمال العاصمة دُنقلا، لخوض المعركة المصيرية للفتك بجيش العدو والانتصار عليه.

كانت والدة الملك لديها من الخبرة ما يكفي للبت في الأمور المهمة، فهي اكتسبت هذه الخبرة من الأجيال الملكية السابقة التي عاشت في كنفها..

في صبيحة اليوم الثاني، التقى الملك سمامون بالأمير جريس صاحب الجبل ـ فكان يطلق هذا اللقب على والي ولاية مريس التي تقف كالجبل الشامخ، لتمنع توغل المسلمين داخل أراضي المملكة، وهو كذلك حاكم مقاطعة مريس بالكامل، لتوديعه قبل أن يرحل إلى ولايته، فسأله عن حال الرعية والمعيشة والنساء الصالحات، وعن حال الحصون والجيش المرابط على الحدود فقال له:

ـ لابد أن تكون عيناك وأذنك في كل مكان، ترصد دبيب النمل على الحدود.

فرد عليه صاحب الجبل جريس قائلًا:

ـ ما من طائر طار على حدودنا إلا ونعلم من أي عشٍّ طار وفي أي فرع من الأشجار رك.

فقال له الملك:

ـ هذا ممتاز.

ثم أردف قائلًا:

ـ إن الحزن يكاد أن يفتك بقلبي لخسارتنا للحربين الماضيتين أمام هؤلاء المماليك، فلابد أن نسحقهم سحقًا هذه المرة.

أمسك الأمير جريس بكتف الملك بحرارة فقال له:

ـ إن النصر حليفنا لهذه المرة، فسنجبرهم على الدخول من المنافذ الضيقة ليكونوا صيدًا سهلًا لسهام النبالة، فإن عبر منهم أحد، لا يقوى على الالتحام مع جنودنا.

ثم أردف قائلًا:

ـ وإن عبر منهم من عبر فإن خطة جلالتك المحكمة قادرة على القضاء عليهم قبل أن يتخطوا ولاية مريس.

نظر الملك سمامون عبر النافذة، فرأى قافلة الوالي جريس المرابطة في الساحة الملكية قد أكملت استعدادها للانطلاق نحو ولاية مريس الهامة، فسمح له بالمغادرة في الحال، وأمره بالالتزام بالخطة إلا إذا جاءت منه شخصيًا إشارة بغير ذلك..

في تلك الأيام التي بدأت تفوح فيها رائحة الحرب والدسائس، أرسل الأمير أدور مك(1) ولاية التَّكاكي هدية إلى السلطان المملوكي قلاوون في مقر إقامته، بعاصمة مصر المملوكية، قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، وهي عبارة عن فيل وزرافة، ورسالة مختومة بالختم الأميري، وعليها نقش التاج الملكي الألودي المرسوم بماء الذهب، تعبر عن العلاقات المتينة حينها بين مصر المملوكية ومملكة الوديا المسيحية، فجاءت الفرصة على طبق من

(1) مك - الامير الوالي لولاية ، و حاكم مقاطعة كاملة.

ذهب للسلطان المملوكي قلاوون المتحين لها، لإرسال جاسوس متنكر في هيئة رسول، إلى أدور متملك مقاطعة التَّكاكي ليشكره على هذه الهدية القيمة، وليشيد بحسن العلاقات بينهما، أما باطن الأمر وما خفى منه أعظم، فكان على الجاسوس، أن يطلع على الأحوال في بلاد النوبة، خاصة في العاصمة المشاكسة دُنقلا. ليرى السلطان المملوكي من أين تأكل الكتف، فينقض عليهم في ساعة من الزمن..

وصل الرسول إلى عاصمة مملكة النوبة المتحدة دُنقلا، سالكًا الطريق الزراعي بمحاذاة نهر النيل، في طريقه إلى ولاية التَّكاكي بمملكة الوديا في شهر طوبة(1) القارص. فكر الملك سمامون في إلقاء القبض على الرسول والزج به في السجن، حتى يعترف بتفاصيل المأمورية التي جاء من أجلها، في هذا الطقس البارد لديار النوبة، لم تعجب هذه الفكرة والدة الملك سمامون ولا كبار رجالات المملكة، فنصحوه بعدم المساس بالرسول بسوء، وأن يدعه في حال سبيله حتى يصل إلى وجهته النهائية. بعد أن تم استدعاء الرسول مرتين للتحقيق معه، تجول في ضواحي المدينة وداخل أزقة الأحياء الراقية، تحت المراقبة المشددة من بعيد لبعيد،

(1) طوبة - 26/12 الى 25/1 .

ولكنه كان يتحسس شيئًا ما خفيًّا، يدور داخل أزقة الأحياء الملكية الراقية بالعاصمة دُنقلا. بعد أن أكمل مهمته بولاية التَّكاكي، عاد الرسول ـ بوصية من الأمير أدور ـ إلى العاصمة القاهرة سالكًا طريقًا آخر بعيدًا عن النيل، خوفًا من أن يقبض عليه ويقتل، وفي قصر السلطان المملوكي، اشتكى الرسول لسيده السلطان من المعاملة القاسية التي لقيها من الملك سمامون وأتباعه، وأنه يشك بأن هناك تحركات مريبة وخطيرة تجرى خلف الأبواب الموصدة، داخل أروقة البلاط الملكي في العاصمة دُنقلا، التي لا تفصح عن أسرارها بسهولة ..

بعد فترة من الزمن، غير بعيدة من وصول الرسول إلى العاصمة القاهرة، عبر طريقًا لا يحاذي النهر، وصل وفد من الملك سمامون إلى الباب السلطانية محملًا بعدد من البقر والخراف، عبارة عن هدية من ملك النوبة المتحدة للسلطان المملوكي، حتى لا يشك الأخير بأن هناك شيئًا ما يعد ضده، قد تكون ساعة الصفر فيه عما قريب. تحرك القادمون بهدية السلطان ببطء داخل أزقة المدينة، لعلهم يلمحون إن كان لهؤلاء المماليك علم بأمر الحرب، فرصد العسكر تحركاتهم دون أن يشعروا. بعد عودة الوفد إلى ديارهم، قرر السلطان المملوكي إرسال رسولين آخرين أحدهما إلى ولاية

التَّكاكي والآخر إلى العاصمة دُنقلا، بغرض التجسس عليهما مليًا، وليقفا على حقيقة الأمور في تلك البلاد، وليرى السلطان بعدها إن كانت رقعة الحرب ستزيد، أم ستنحسر مع عدو واحد لا غير..

جرت الاستعدادات والتجهيزات للحرب القادمة على قدم وساق، فتقوقع الجيش في حصونه، وفي ساحة الحرب في ولاية مريس، وفي الحاميات التي تقع على الجنوب منها، وفي ساحة الحرب الكبيرة التي ستشهد فناء الجيش القادم، كان الملك سمامون الذي اشتهر بالمكر والدهاء وسعة الحيلة، يخطط أن يجر جيش العدو إلى المقبرة فيدفنه فيها، ثم يشن حربًا واسعة على المماليك، حتى تخر عاصمتهم له ساجدة، فيقتلعهم منها ليعودوا من حيث أتوا. عمد الملك سمامون أن يرمي الطعم للسلطان قلاوون فيصطاده في بحر النيل، ففرقع خبر استعداده للحرب، لعلمه بأن السلطان المملوكي سيستهين بهم في هذه المرة، ويرسل إليهم جيشًا يافعًا دون أن يكمل النضج بالتدريبات الجيدة، فيكون صيدًا سهلًا يستمتع بالتهامه مقاتلو الجيش النوبي..

علم السُّلطان المملوكي قلاوون بأن الحرب التي يعد لها، قد آن أوانها الآن وليس الغد، بعد أن رفض الملك سمامون استقبال

الرسول ودفع الجزية، معللًا ذلك بأن للاتفاقية القديمة بنودًا معطلة من قبل المسلمين، فحرَّك السُّلطان المملوكي جيشًا ضخمًا، حوالي أربعين ألف مقاتل نحو العاصمة دُنقلا، بقيادة الأمير المملوكي عز الدين أيبك، ومع هذا الجيش عددٌ من الحراريق، وما يزيد عن خمسمائة مركب صغيرة وكبيرة تحمل الأزواد والزردخانة والأثقال، فلعبت هذه الحراريق الدَّور الرَّئيسي في الانتصارات المتتالية لجيش المماليك، فأرسل الملك سمامون إلى الوالي جريس صاحب الجبل ونائبه بجرائر ميكائيل وعامله في الدر، فأمرهم بإخلاء كُلِّ البلدات التي يمر بها جيش الغُزاة، وأن ينسحب الجيش النوبي أمام الجيش المملوكي تدريجيًا. هذه خطةٌ نُوبيَّةٌ قديمةٌ لإرهاق جيش العدو، وسحبه إلى الكمَّاشة للقضاء عليه. عندما التقى الجيش النوبي القادم من العاصمة بشقه الآخر القادم من إقليم مريس، تمركزوا بقيادة الملك سمامون ـ لما لديه من بأس ـ في ساحة الحرب الكبيرة استعدادًا للقتال، فلما قدم جيش المماليك بقيادة الأمير عز الدين أيبك، دارت بين الجيشين حرب طاحنة، مالت فيها الكفة لأصحاب الأرض، لولا تدخل الحراريق في الأيام الأخيرة للمعركة بنيرانها الثقيلة، فكانت تُلاحق الجيش النوبي، فتُصيب الجند بالهلع. فحولت ميل الكفة إلى الطرف

الآخر. فطن الملك سيامون لخطورة الحرائق على جيشه؛ فأمرهم بالانسحاب والتوجه نحو العاصمة دنقلا، لم يكن الوالي جريس ضمن الجيش المنسحب، فقد أصيب في المعركة وعلى أثرها تم أسره، فلما وصل الجيش إلى العاصمة دنقلا قرَّر الملك سيامون اللُّجوء إلى جزيرة مقرات الحصينة، حتى يتسنَّى له رسم خُطَّةٍ جديدةٍ لمجابهة المماليك مرة أخرى ..

وصل الجيش المملوكي إلى العاصمة دُنقلا في نفس اليوم الذي رحل عنها الملك سيامون وأتباعه، فلم يجد الجيش المملوكي جيش العدو ولا ملكهم، ووجدوا شيخين عجوزين افترشا الأرض، ويتجاذبان أطراف الحديث في ساحة المدينة الخالية من البشر، فسألهم الأمير المملوكي أيبك، عن أخبار الملك وجيشه، فأجابا أنَّه ـ أي الملك ـ توجَّه إلى جزيرةٍ وسط بحر النِّيل، مسافتها من العاصمة دُنقلا خمسة عشر يومًا، واتساع هذه الجزيرة ثلاثة أيام طُولًا، فتبعهم الأمير المملوكي أيبك ومن معه من القادة والأمراء، والجنود إلى الجزيرة المذكورة، ولم تصحبهم حرَّاقة، ولا مركب واحدة لوعورة النَّهر بالأحجار الضخمة في الجندل الواقع في أقصى جنوب المملكة، ولما انتهوا إلى قُبالة الجزيرة ذاتها، شاهدوا فيها عدَّة مراكب للنُّوبة المتحدة، وجمعًا كثيرًا، فسألوهم

عن الملك؛ فأخبروهم أنَّه داخل الجزيرة، فعرضوا عليه الدُّخول في الطَّاعة، وبذلوا له الأمان فأبى..

أقام العسكر المملوكي بقيادة أميرهم أيبك ثلاثة أيام، على مسافة عدة أذرع من البر المقابل لجزيرة مقرات الحصينة، وأوهموا الملك سمامون بأنَّهم أرسلوا في طلب المراكب والحراريق، استعدادًا لمحاربته، فهرب الملك من الجزيرة المذكورة إلى داخل ولاية التَّكاكي، ومعه نفرٌ من الأمراء، وكاتب الشَّونة أونسة الثالث عشر، وأُسرهم، بينما فارقه الأسقف، والقسيس، ونفرٌ من السَّواكرة، والجند ومعهم الصَّليب الفضي، الذى يُحمل على رأس الملك، وتاج المملكة. فأعطاهم الأمير المملوكي الأمان، فدخلوا تحت الطاعة. تحرك الجيش المملوكي بعد أن مكث عدة أيام، قُبالة جزيرة مقرات الحصينة، متوجهًا إلى العاصمة دنقلا، دون أن يستطيع هزيمة جيش الملك سمامون تمامًا، ودون أن يتمكنوا من إلقاء القبض عليه..

استقبل والى التَّكاكي أدور الجماعة الفارة، وأكرم نُزلها، فعاشت بينهم حياةً طبيعيةً. أرسل السلطان قلاوون رسالة إلى الأمير أدور، فطلب منه أن يقبض على الملك سمامون ويرسله إلى العاصمة القاهرة مقيدًا بالسلاسل، فلم يجبه الأمير أدور بالموافقة

أو الرفض، وعندما طال الأمد في انتظار الرد، فكر السلطان المملوكي قلاوون بتحريك جيش ضخم، نحو ولاية التَّكاكي للقبض علي الاثنين معًا، إلا أن الأمير المملوكي أيبك أخبره بوعورة الملاحة في تلك الجنادل التي على مشارف إقليم التَّكاكي، وأضاف قائلًا: «إنهم إذا دخلوا في حرب برية مع هؤلاء النوبيين فهذا يعني الهزيمة لا محالة، نسبة لقوة المقاتلين النوبيين في الالتحام ولمقدرتهم الفائقة في استعمال الأقواس». وأنهى الأمير المملوكي كلامه قائلًا: «لولا الحراريق التي تحمل على المراكب الكبيرة لما استطعنا أن نهزم هؤلاء النوبيين أبدًا».

انشغل السلطان المملوكي في الأيام التالية بأمر مبايعة الملك الجديد، الذي جلس على كرسي العرش لمملكة النوبة المتحدة، خلفًا للملك سمامون الطريد، وأعطى الملك الجديد عهدًا للسلطان المملوكي، بتفعيل اتفاقية البقط ـ كما يشتهي السلطان ـ على أرض الواقع الخراب..

تم الاحتفال بتنصيب الملك الجديد في كنيسة أسوس بالعاصمة دنقلا، وألبسه العساكر الزي الملكي الكامل ووضعوا فوق رأسه التاج الملكي ومن فوقه الصَّليب الفضي، في حضور والي مريس وعدد من الشيوخ والنسوة وكبار شخصيات المملكة وعامل

السلطان المملوكي، الذي عين مراقبًا لتنفيذ بنود الاتفاقية من مقر إقامته في ولاية مريس، ثم تلا الملك الجديد نص يمين حلف عليها للسلطان قلاوون: «والله والله والله وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة أم النور والمعمودية، والأنبياء والرسل، والحواريين، والقديسين، والشهداء الأبرار، وألا أجحد المسيح كما جحده بودس... »، حتى ختم قراءته للنص: «وإنني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان من وقته وساعته، ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم يكن مصلحة،وإنني ولي من والى السلطان وعدو من عاداه، والله على ما أقول وكيل».

وبعد فراغه من قراءة النص، تناول الجميع وليمة فيها كل ما تشتهي النفس من طيبات الطعام أعدت خصيصًا لهذه المناسبة، ثم أنشدت الأناشيد الدينية لتعطي الاحتفال الهالة القدسية المطلوبة كما في كل الاحتفالات الكبرى، فتمت مبايعة الملك من قبل الحضور فأعلن ذلك قديس الكنيسة بعد إتمام المراسيم المطلوبة لذلك، شرب الملك والحضور بالقدح الفضي الماء المجلوب من نهر النيل والممزوج بعجينة نبات القمح الناضج منذ فترة طويلة من الزمن، لتشهد فترة حكمه الرخاء والنماء ولا تعرف المجاعات

إليهم سبيلًا..

كان ذلك اليوم الذي أتمت فيه المراسيم الباهتة لتنصيب الملك الجديد، حديث الناس لما بعده من أيام، فكان السواد الأعظم من الشعب يرى أنها مسرحية هزلية، لا يمكن أن يستمر عرضها على خشبة مسرح العاصمة الصامدة دنقلا، ولا يمكن لهذا الملك اللين والهش، أن يملك هذه البلاد التي قهرت أعداءها منذ الأذل، فكانوا يضحكون ويتندرون على مشيته ـ كما زحف السلحفاء في رمل الشاطئ ـ التي على كل حال لا تشابه مشية الملوك، وعلى نص اليمين التي حلف عليها للسلطان المملوكي، ومن ضمن هؤلاء الساخرين على هذا الملك الهش واللين، التاجر كلينج والقدِّيس قرقي والوزير السابق للخزانة، فتحدثوا عنه ذات مرة عند اجتماعهم في صحن كنيسة الأعمدة بدنقلا، فقال التاجر كلينج:

ـ كيف جاز لهذا الملك اللين أن يقول: «وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصًا من كل حق والنصف الآخر مرصودًا لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها»، يبدو أن هذا المهبول سيجعل السلطان المملوكي يشاركنا في أحلامنا أيضا.

فقال وزير الخزانة السابق وهو يضرب كفًا بكف:

ألا يعلم هذا الملك العبقري أنه بسبب ركوض تجارتنا الخارجية لم يكن كل المتحصل في الأعوام الماضية مرصودًا لعمارة البلاد، ناهيك عن النصف.

فضحك القدِّيس قرقي فقال:

ـ هل هناك عدو آخر يطرق باب دولتنا غير هذا السلطان الذي حاربنا في رزقنا ورزق عيالنا، فاتفق معه هذا المعتوه.

قهقه التاجر كلينج وهو يحاكي الملك الجديد في مشيته ويقلده في كلامه فقال:

ـ كيف لنا نحارب هذا العدو، وهذا المهبول حلف قائلًا:

ـ «وإنني لا أترك شيئًا من السلاح ولا أخفيه ولا أمكن أحد من إخفائه»، فما يدهشني سكوت سواكرة الجيش على هذا الحديث حتى الآن، ربما نكون في القريب العاجل دولة بدون جيش فنهان.

لم يستطع وزير الخزانة السابق أن يتمالك نفسه من الضحك فقال:

ـ صدقت يا كلينج، فمع هذا الملك الطرطور لا يمكننا أن نحارب كتيبة من أفراس النهر، ناهيك عن جيش لعدو منظم.

لم يتوقف القدِّيس قرقي عن الضحك فقال:

ـ ربما هذا الملك المعتوه يتفق مع سلطان أفراس النهر، ويحلف

له يمينًا بأن لا يسبح أحد منا في النهر إلا بإذن مسبق من سيادة السلطان.

فرد عليه التاجر كلينج مقهقهًا فقال:

ـ هذا جائز! فعلًا أمر هذا الملك غريب.

ثم أردف قائلًا:

ـ الذي يحيرني أن قس كنيسة أسوس لم يتكلم إطلاقًا عن تلك المخالفة الدينية الواضحة، عندما حلف هذا الملك المهبول قائلًا: «ومتى ما خرجت عن جميع ما قررته أو عن شيء من هذا المذكور أعلاه كله، كنت بريئًا من الله تعالى، ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية وأصلي إلى غير الشرق وأكسر الصليب».

فرد عليه وزير الخزانة السابق فقال:

ـ إن قس كنيسة أسوس شاب يافع، لم يمضِ على تعيينه في هذه الوظيفة سوى عدة أشهر.

رد عليهم القدِّيس قرقي قائلًا:

ـ في الوقت الراهن لا سند ولا قوة للكنيسة، فالأمر يحتاج إلى تحرك كل قطاعات المجتمع لإنهاء هذه المهزلة.

كانت كل المؤشرات تدل على أن هذا الملك لن يستمر في حكمه

طويلًا، فإن رقعة السخط والتندر عليه قد اتسعت كثيرًا، وسط عامة الشعب ولدى كبار شخصيات الدولة، وربما كان سواكرة الجيش ينتظرون أن تأتيهم الأوامر للتحرك باتجاه القصر الملكي، فكانت الأيام تعد يومًا خلف يوم، من وقت تولى هذا الملك اللين والهش الحكم على أمل أن تنتهي قبل حلول يوم آخر..

بعد فترةٍ من الزَّمن عاد الملك سمامون، ومعهً عددٌ من أتباعه، وأُسرته إلى العاصمة دُنقلا مرَّةً ثانيةً فاتحًا، ومنتصرًا؛ فاستقر بها ملكًا مُتوجًا، بعد أن طاف في ليلة قدومه أحياء المدينة الراقية بمفرده، وهو يمتطى جواده ويحمل معه آلة الحرب، وصار يقف على باب كل سوكرتي بنفسه ويستدعيه، فإذا خرج ـ السوكرتي من داره ـ ورآه قبل الأرض بين يديه وحلف له ببراءته وأنه لم يكن مشاركًا في مراسم تنصيب الملك الجديد، ولا مؤيدًا لذلك الخنوع الذي حدث أمام المماليك. فما طلع الفجر مبتسمًا حتى ركب معه جميع سواكرة الجيش المتواجدين بالعاصمة دنقلا جيادهم الفتية، وتسلحوا بأسلحتهم الفتاكة ولبسوا دروعهم المتينة وبايعوه على الولاء، فزحف بهم في ليلته إلى دار الملك الذي بايعه السلطان المملوكي، فقبض عليه وأخذ منه تاج الملك الذي ألبسوه إياه العسكر، فرمى به في السجن في انتظار مصيره المشؤم..

وعندما حل الصباح البهي، ذبح الملك سمامون ثورًا يافعًا ابتهاجًا بالنصر، ورمز بذلك لقوته الجبارة في دحر الأعداء بمفرده، فصنع من جلد الثور سيورًا لف بها الملك المعزول وهي طرية، بعد أن عراه من ثيابه تمامًا وأقامه على خشبة، فيبست السيور على جسده فمات على أثرها الملك المعزول، الذي اتهم بالخيانة العظمى للمملكة.

فزحف الملك سمامون بجيشه على ولاية مريس في الشمال، التي تقع على حدود الدولة المملوكية، فقبض على حاكمها الذي تآمر مع الملك الذي مات يابسًا على الخشبة التي علق عليها في وهج الشمس الحارقة، فتمت محاكمة حاكم مريس، كذلك بالخيانة العظمى للمملكة، فتم قتله على أثر ذلك الحكم، فعين أمير آخر حاكمًا على الولاية المهمة بالنسبة لمملكة النوبة المتحدة. كما طلب الملك سمامون من عامل السلطان المملوكي الموجود في ولاية مريس، الرحيل عن الولاية حتى لا يلتقي به فيقتله، فرحل عامل السلطان المملوكي، ومن معه من الولاية خوفًا من أن يقتلوا، إلى دولتهم فاستقروا في مدينة قوص، فبسط الملك سمامون قاهر الأعداء حكمه على المملكة ملكًا منتصرًا ..

بينما استقر عددٌ قليلٌ من الفارين من الحملة المملوكية، التي انتصرت علي جيش النوبة المتحدة قبل أن تصل إلى العاصمة

دنقلا، بفضل تلك الحرايق التي كانت معهم، في ولاية التَّكاكي التي اتخذوها موطنًا لهم ولأسرهم، فلم تبخل عليهم الولاية بأي حال من الأحوال، ففتحت لهم أبوابها على مصراعيها وحضنتهم بعطف الأم الحنون وقت المصائب التي تحل بالإنسانية، وكذلك لم يبخل عليهم حاكمها الأمير أدور، الذي سهل لهم كل الصعاب لكي يندمجوا في المجتمع المحلي، للاستفادة من خبراتهم في ترقية المجالات التي يعملون بها، فيتم توظيفها لصالح الولاية والمواطنين على حدٍّ سواء، فكان من بين أولئك الفارين كاتب الشَّونة أونسة الثالث عشر، وأُسرته العريقة، التي اشتهرت بالفن، والأدب، وتدوين أحداث التَّاريخ؛ فعمل في تدوين التَّاريخ، وتدريسه.

15

بعد أن قويت شوكتهم، وأصبحوا أكثر تنظيمًا عمَّا سبق، خاض الأنج غزواتٍ، وحروبًا كثيرةً في مختلف الاتجاهات، فأصبحوا يُشكِّلون قوةً ضاربةً لا يُستهان بها، فعادت مقولة الأنج قادمون، إلى مجالس الأهالي في تلك الاتجاهات مرة ثانية، وفي روايات أخرى كان يقال: «البلو قادمون». عندما دخلت مملكة النُّوبة المتحدة في حروبٍ طاحنةٍ مع الدُّويلات الإسلاميَّة في الشَّمال، فكَّر الأنج جديًا في الانقضاض على مملكة الوديا المسيحية، والاستيلاء علي ملكها، لتصبح تحت سيادتهم، فينطلقون من عاصمتها سوبا للسيطرة على أرض وادي النيل بالكامل، فشنُّوا غاراتٍ مُتتاليةً على ولاية التَّكاكي، وأرعبوا سُكَّانها الآمنين في ديارهم الآمنة. فاستمرت تلك الغارات لأزمان طويلة دون كلل أو ملل من قبل الأنج، فكانوا كما الأرضة التي تنخر جزوع الأشجار المثمرة

باستمرار، فتنهار تدريجيًا إلى كومة من الأعواد الجافة. وعندما تولى شأن الأنج القائد رتاه المحنك بأمور القتال والتكتيكات الحربية، وضع خطة محكمة تتكون من ثلاث مراحل رئيسية، كانت كفيلة في نهاية المطاف بأن تؤدي إلى النتائج المرجوة..

في ظل الضَّربات المتتالية لقوات البلو على مدن وقرى التَّكاكي، التي تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل، فكَّر أمراء الولاية وحاكمها في توظيف تلك التَّحصينات المنيعة، وأبراج المراقبة العالية، التي كانت تخدم وتحمي المراكز الدينية والمواكب الجنائزية التي تسير نحو المقابر الملكية، فاستعملت لوقف توغل الأنج إلى داخل أراضيهم، وحماية الطُّرق التِّجارية التي تمر عبر الشَّرق، فأنشئت قلاع إضافية على مسافاتٍ مُتقاربةٍ مع تلك التَّحصينات القديمة على طُول المنطقة الشَّرقيَّة، فتم ربطها بشبكة أبراج المراقبة القديمة، فتعمل مسحًا شاملًا من فوق أعلى نقطة للأبراج، للأراضي الشاسعة التي تقع أمامها، فكانت كما الصقر في قوة نظرته إذا حدق للأعداء، بعينيه الحادتين وهو يحلق في الفضاء، فتكون تحركات فريسته تحت مراقبته طوال الوقت وأينما ذهبت، فعندما تحين ساعة التهامها ينقض عليها على الفور، فيحبس أنفاسها بين المخالب الصلبة، فهذا ما كان يمثله

بالضبط حارس تلك الأبراج العالية، الذي يراقب التحركات المعلنة والخفية للأعداء، على امتداد الأفق البعيد للمكان..

لم يفُت على القائمين على الأمر بولاية التَّكاكي، تقوية المناطق الضَّعيفة والخالية من السُّكَّان تمامًا، بهذه الاستحكامات المنيعة، وغالبًا ما تكون هذه المناطق الخالية من البشر، مناطق زراعيَّةٍ قريبةٍ من النَّهر الخالد، يبني فيها المزارعون ـ بالطِّين، وعلى مسافاتٍ بعيدةٍ من بعضها ـ دنقة(1) بداخلها مرقونٌ(2) صغيرٌ يسهل الهرب منها ـ عند وجود الخطر ـ إلى الجزر القريبة من تلك المناطق الضَّعيفة أو إلى المدن التي تقع قبالتها في البر الغربي، وبهذه الطريقة البسيطة يستطيع المزارع أن ينجو بنفسه وبسرعة فائقة، من فك الأنج القاتل، على ظهر الطواف الراسي على شط النَّهر، الذي يبحر بخفة مع أو ضد التيار لحمولته البسيطة، بواسطة مجاديف صغيرة ـ أو سواعد الإنسان ـ فيجدف بها إلى الأمام برشاقة، فكل إنسان في هذه الديار يجيد السباحة بمهارة فائقة، كابن شرعي لهذا النَّهر، فيصل بسلام إلى شط الأمان..

كانت هذه التَّحصينات المنيعة ترتبط بوحداتٍ إداريَّةٍ داخل الجزر وفي البر الغربي للنهر، ذات الكثافة السُّكانيَّة العالية،

(1) دنقة - غرفة تبنى داخل الاراضي الزراعية.

(2) مرقون - مخزن صغير

لوجودهما في مأمنٍ من غزوات الأنج المتكررة. فشُيِّدت فيها الكنائس، لإعطاء جرعات أمانٍ أكثر للسُّكان. فكان يجهز فيها المقاتلون ليشكلوا وحدات دفاع طوعية تساند الجيش، لصد أي هجوم مباغت على المدن التجارية التي تقع في الساحل الشرقي للنهر. اشتبكت تلك الوحدات الطوعية مع جنود جيش الأنج، في حروب خاطفة على طول الطريق التجاري، وأحيانًا كانت تكمن لمقاتلين الأنج، بعد أن تأتيها إشارات من تلك الأبراج العالية، بأماكن تواجد أولئك المقاتلين، فتجبرهم على الانسحاب من أرض المعركة بعد أن توقع بهم الخسائر الفادحة، فعندما ينضم الجيش ـ الذي يحاول أن يقضي على تلك الأرضة التي تنخر في جسده بلا هوادة ـ لتلك الوحدات المقاتلة في تلك الكمائن، كانت تتم مطاردة مقاتلي الأنج الفارين من أرض المعركة ـ لهول المفاجأة التي لم تكن على بالهم ـ حتى بدايات براري الشرق الموحشة، وبذلك تمكنت ولاية التكاكي من الصمود طويلًا في وجه غارات الأنج التي لا تكل ولا تمل..

عمد البلو وفي خلال سنوات متتالية، إلى قطع هذه الطُّرق التَّجاريَّة، وشل حركة التِّجارة في إقليم التَّكاكي بالكامل، فتربصوا بالقوافل المحملة بالبضائع، ونهبوها مقابل إخلاء

سبيل أفرادها، فلم تعد هذه القوافل التَّجاريَّة التي تأتي من أماكن شتى، تسلك تلك الطَّرق غير الآمنة، فبحثت لها عن طَّرق تجاريَّة أخري أكثر أمانًا. عمد البلو في هذه السنين المتتالية، على إفساد تلك المزارع، التي توجد في الضِّفة الشَّرقيَّة للنِّيل، فما عادت توفر الغذاء الكافي لسكان الضِّفة الأخرى، فعندما شعر البلو بأن عدوهم كاد يهلك جوعًا، عملوا بجد على مُحاصرة المدن، والجزر، والقرى الألوديا المتحصِّنة، لفترات زمانية متقطعة وطويلة، فأرهقوا وحدات الجيش الألودي المتمركز في الحصون العسكرية، الموجودة داخل حدود إقليم التَّكاكي، وكذلك أرهقوا تلك الوحدات القتالية الطوعية، فانحصرت مهمتها في الدفاع عن النفس، من خلف تلك القلاع العالية، في انتظار أن يأتيهم المدد من العاصمة سوبا، التي لم تشعر بخطورة هؤلاء الأنج الأشداء في القتال، فبدأت بإعداد جيش ضئيل نسبيًا، ظنًا منها أنه قادر على هزيمة مقاتلي الأنج بيسر، والقضاء عليهم نهائيًا، وفي أسوأ الأحوال المناخية، دحرهم دون مشقة إلى فيافي مسقط رأسهم، فكانت تلك هي بداية الهزيمة التي ستذوق مرارتها العاصمة سوبا نفسها في قادم المعارك..

في ذلك العام الذي بدأ يشهد التحولات الكبرى القادمة على

مهل، دخل الأنج في سباق مع الزمن، لاستلام مقاليد الحكم في إقليم التَّكاكي، وإرغامها على الاستسلام قبل أن تتدفق عليها إمدادات المقاتلين من العاصمة سوبا، فيرجح كفة القتال لصالح أولئك البؤساء الذين يقبعون خلف قلاعهم الحصينة. فتحرَّكوا بجيشٍ جرَّارٍ بقيادة القائد الفذ رتاه نحو مدينة بلاق التجارية، وحاصروها بُرهةً من الزَّمن فعزلوها عن المدن والبلدات المجاورة لها، كمجرم بريء ينتظر حكم الإعدام في أي وقت من العام، فعندما شعرت المدينة أن حبل الإعدام يلتف بقوة حول عنقها، دافعت عن نفسها بشراسة اللبوة المحاصرة من جميع الأركان، فأرسلت من فوق أسوار حصنها السهام القاتلة، باتجاه ذلك العدو الذي يحاصرها، فكانت قوات الأنج المحاصرة لفريستها ترد من على الأرض، فترسل سهامها كذلك باتجاه تلك الأسوار، فدارت الحرب بالنبال ما بين المدافعين والمهاجمين، قتلت فيها أعداد كثيرة من جنود الطرفين، فجنح جيش الأنج لدك باب المدينة المغلق بالأخشاب الغليظة التي يدفعها الجنود الأقوياء، فيدلق عليهم المدافعون الزيت الساخن من فوق سور الباب، فيتراجع الجنود المندفعون بالأخشاب الغليظة إلى معسكرهم ما بين مصاب بالزيت الساخن وما بين

مصاب بسهم خارق، استمرت حرب الحصار ما بين الدفاع والهجوم لزمن طويل، قبل أن تسقط مدينة بلاق التُّجارية في أيدي الأنج، بعد أن نفد الطعام عن المدينة وكاد شبح المجاعة أن يفتك بها لطول أمد الحصار..

بدأ محصول العام ينبت على أرض الوادي العامر بالسكان، في ذلك الشهر النجمي، الذي لم تقوى فيه القرى والمدن المتحصنة شمال مدينة بلاق التُّجارية، الواقعة على الضفة الشرقية للنهر، على حصار جيش الأنج لها، سوى لبضعة أيام قلائل، فكانت تتساقط كالأرض الهشة الموجودة في شط النهر، التي تتآكل بسبب الهدام فتنهار كليًّا داخل الماء. ملأ الأنج النهر ـ قبل موسم الفيضان ـ بمراكبهم الحربية التي حملت الجنود والعتاد، كتماسيح النيل العابرة لبلاد سيد الأرض كوش بن حام، فحاصروا الجزر النيلية والمدن، الواقعة شمال مدينة بلاق التُجارية، وعلى الضفة الغربية للنهر، وأغاروا عليها مرارًا وتكرارًا لعدة أشهر، حتى سقطت واحدةً تلو الأُخرى في أيديهم، فعادوا إلى مدينة بلاق التُّجارية التي اتخذوها مركزًا لتحركاتهم داخل إقليم التَّكاكي، تلك المدينة التي وفرت لهم المراكب الشراعية، فجابوا بها النهر في غزواتهم، فكان لها الفضل في فتح تلك الجزر النيلية والمدن

البعيدة عن متناول أيديهم، فجلسوا قبل زحفهم الأخير داخل إقليم التَّكاكي حول قائدهم الفذ رتاه، منتشين بالنصر المبين، ويقسمون على القتال حتى آخر قطرة في دمائهم، في سبيل تحقيق حلمهم الذي أصبح في متناول أيديهم، فلا مستحيل تحت الشمس، ولا انكسار مع قوة الإرادة ..

بعد تلك الانتصارات المبهجة لمقاتلي الأنج ـ وقت نضوج البقوليات المزروعة على جروف النهر الخالد ـ توجهوا صوب المدن والقرى، والجزر الواقعة جنوب مدينة بلاق التجارية، فعلى بعد مائتي وعشرين ذراعًا جنوب المدينة، التقوا بذلك الجيش القادم من العاصمة سوبا لنجدة الإقليم، فاشتبكوا معه في قتال دام لم يستمر أكثر من ثلاث ليالٍ، لصغر حجم الجيش القادم للنَّجدة، في مقابل جيش الأنج الضخم والمرعب، ورغمًا من ذلك كانت المعركة دامية، قتلت فيها أعداد كثيرة من الجنود. فبانهزام ذلك المدد القادم لنجدة المقاطعة، انفتح الطريق على مصرعيه لمقاتلي الأنج، للتوغل نحو الجنوب بلا انقطاع ولا توقف، فعاش الناس في تلك الاتجاهات أوقاتًا صعبة، من القلق والخوف، والرهبة من اجتياح أولئك البدو لهم في أي لحظة من الوقت، فأرسلوا يخبرون العاصمة سوبا بتلك الأخبار المحزنة،

ولتنجدهم من هذا الوحش القادم لهم. استعمل الأنج في فتحهم للمنطقة الواقعة جنوب مدينة بلاق التجارية، وعلى ضفتي نهر النيل بإقليم التكاكي، التَّكتيكات نفسها التي استعملوها في فتح المنطقة الواقعة شمال المدينة، فدانت لهم كُلُّ المقاطعة بالطَّاعة والولاء..

كانت قد مضت ثلاث ساعاتٍ تقريبًا مُنذ أن بدأ كاتب الشَّونة أونسة الخامس عشر يقرأ ـ على ضوء أونتي ـ تلك الرِّوايات والأحداث المهمة الموجودة في مُجلداته، عن حكاية الأنج في زمن اعتناق أجدادهم للدِّيانة المسيحيَّة. لم يكن ثمَّة صوتٌ يتحدَّث في وسط ساحة الزَّريبة، سوى صوت كاتب الشَّونة، فقال:

ـ عندما استولى الأنج بقوة السيف على إقليم التَّكاكي، هاجرت منه أنا وأسرتي مع بعض الأهالي إلى العاصمة سوبا الجميلة.

لم يُقاطعه أحدٌ مُستفسرًا أو سائلًا، فشرب قليلًا من الماء البارد، فنظر نحو السماء متأملًا، ثم نحو المستمعين إليه بإشفاق، ثم نظر إلى مجلداته لدقائق معدودة، فراح يسرد عليهم تفاصيل المعركة الفاصلة، التي كانوا هُم جزءًا من فصولها المتعددة..

كانت العاصمة سوبا الجميلة في عصرها الذهبي، ترقد على حضن أحد الرافدين الرئيسيين لنهر النِّيل الخالد، كواحدةٍ من

أبهى وأميز المدن الحضاريَّة في هذا الكون الفسيح. تحفُّها الرِّياض الغنَّاء، والحدائق المزدهرة، والمزارع الخضراء، والسَّواقي المنتشرة على حافة النَّهر، والأبنية الفخمة، وساحة المدينة العامة، وبالقرب منها كاتدرائيَّة سوبا الأنيقة، والقصر الملكي. وفي الشرق من السَّاحة، تُوجد سوق المدينة الكبيرة، وخلفها مُباشرةً يقبع حي المسلمين الجدد، فمعظم سُكَّان هذا الحي من الذين اعتنقوا الإسلام في رحلاتهم التِّجارية مع الشَّمال، وكذلك يسكنه نفرٌ من المسلمين الذين وفدوا حديثًا إلى العاصمة الجميلة.

كان هذا الحي يتكوَّن من خمسة شوارع طُوليَّةٍ يتقاطع بينها عدد من الأزقة الضَّيقة، ذات البنايات الفسيحة، التي تتكوَّن من طابقٍ واحدٍ أو طابقين، ويتوسَّط هذا الحي، مَسِيدٌ يُؤدى فيه سُكَّان الحي شعائرهم الدِّينيَّة، وكان هناك حيٌّ آخر صغيرٌ يقع في الطَّرف الجنوبي للمدينة، يسكنه عددٌ من العُمَّال الوثنيين الذين وفدوا في أزمان مختلفة من دول الجوار، لتوفير وتأمين لقمة العيش، فكانت المدينة تحيا في حالة سلام داخلي، وكان الملك يتفقَّد رعيته من سائر الملل بين الحين والحين، قبل أن ينشغل كثيرًا بأمر الحرب القادمة على أبواب المدينة، فكثرت اجتماعاته مع وزرائه، وسواكرة الجيش، للتخطيط في كيفيَّة خوض الحرب

المقبلة عليهم عكس جريان النهر، وصد الهجوم الوشيك من جيش الأنج الجرار، القادم إليهم منتصرًا من معاركه السابقة في إقليم التَّكاكي..

قبل اندلاع نيران الحرب بوقت ليس بالبعيد، كان الملك يُؤدى يوميًا مع أتباعه صلاة القُدَّاس، داخل هيكل كنيسة منبلي، داعيًا الرَّب بالنَّصر على هؤلاء الوثنيين الأشرار، فيطلب يوميًا من القس أبراهام، أن ينشد لهم بعض التراتيل المقدسة، لعلها تدخل الثقة في النفوس الحائرة، بأن النصر حليفهم بإذن الرب. وفي آخر اجتماع مهم، عقد في قاعة التخطيط الحربي بالقصر الملكي، قرَّر الملك، ومجلس الوزراء، ومجلس أمراء الحرب، تقوية تحصينات السَّبلوقة، وقَرِّي، وكذلك حصن الكدرو الصغير نسبيًا، بمجموعة من المحاربين الأشداء في حروب الكر والفر، لإرهاق جيش الأنج ـ المرهق أصلًا في حروب إقليم التَّكاكي ـ في ثلاث حروبٍ مُتواصلةٍ، قبيل المعركة الفاصلة، التي ستجرى وقائعها على تخوم العاصمة سوبا، فيكون صيدًا هينًا للقضاء عليه، ومحوه من على ظهر الأرض نهائيًا، ثم يزحف جيش الوديا المنتصر بإذن الرب، حتى حدود مقاطعة التَّكاكي في أقصى الشمال، فيحررها من قبضة هؤلاء الوثنيين الأشرار، لتعود كما

كانت من قبل، الرئة الاقتصادية، التي تتنفس بها مملكة الوديا في تجارتها الخارجية مع دول العالم المتحضرة منها والمتخلفة..

وصل جيش الأنج إلى حصن السَّبلوقة ـ الذي يقع بالقرب من الجندل السادس على نهر النيل ـ كالجراد الصَّحراوي، الذي يهجم على الحقول الخضراء، فيُحوِّلها في ساعة من الزمن إلى أغصانٍ يابسةٍ، كأنَّما نمت في أرضٍ جرداء، لم يهطل بها المطر منذ ألف عام، يتقدَّمهم نحاس الحرب يعزف أناشيد القتال الحماسية، والغبار يعلو في المكان بكثافة من حوافر خيولهم، فيشعر الذي يشاهدهم من على التل، أن جيشًا ضخمًا قوامه مئات الألوف من المقاتلين الأقوياء، يقودهم مارد جبار، يزحف على ظهر خيول وأفيال، ويصطحب معه أسودًا ونمورًا تم ترويضها خصيصًا للفتك بالأعداء، ليحارب ممالك شتى، وبعيدة عن بعضها في لحظة واحدة، فيحالفه النصر في حروبه دون أن يفقد جنديًا واحدًا في القتال، فبذلك المشهد الجبار أرعبوا جنود الجيش المتحصِّن في السَّبلوقة، ففرَّوا قُبالة بلدة قَرِّي، لينضموا إلى الجيش الكامن هناك..

واصل الأنج زحفهم، يُزلزلون الأرض من تحتهم، ويعلو صوت نحاسهم، وأناشيدهم تملأ الفضاءات جلجلةً كزئير

الأسود الجائعة، كدوي الرَّعد الهائل، في ليلةٍ مُمطرةٍ تُرعب الحيوان، والحشرات، والإنسان. فوصلوا إلى حامية قَرِّي في صباح اليوم الذي دارت فيه المعركة، فلم يكن لديهم أي شعور بالتعب والإرهاق، لقطعهم تلك المسافات الطويلة.

فبعد أن فرَّ من أمامهم جنود الجيش الألودي المتحصِّن في حامية السَّبلوقة، دون أن يخوضوا معه حربًا فعلية يسجلها التاريخ، في صفحاته المليئة بالحروب الدموية أشكالًا وألوانًا، استسهلوا أمر معركة قَرِّي واستخفوا بعدوهم أيما استخفاف، فنازلوه في ساعة وصولهم إلى أرض المعركة مباشرة، فالتحم الجيشان في معركةٍ داميةٍ، استمر القتال فيها لمدة يومين كاملين، قُتل فيها الكثير من الألوديين، قبل أن ينهزموا؛ ففر من نجا منهم إلى حامية الكدرو الصغيرة، للالتحاق بكتائب الجيش المتربصة هناك..

استمر جيش الأنج في زحفه بلا هوادةٍ، حتى وصل إلى مشارف بلدة الكدرو، في ظهر اليوم الثالث من معركته الأخيرة، لم يمهله مقاتلو الجيش الألودي المتربص به في حامية الكدرو، الوقت الكافي للراحة والاستعداد للقتال، فهجموا عليه هجمة رجل واحد، فعلى صوت الصُّراخ ـ بضرب الفم براحة اليد ـ والهتاف من كلا الجانبين، وتشابكت السُّيوف، والرِّماح، والأيادي.

سقط كثيرٌ من القتلى من كلا الطَّرفين، في اليوم الأول للمعركة وفي الأيام الثلاثة التالية، لم يتخيل محاربو الأنج أنهم سيفقدون تلك الأعداد الكثيرة من المقاتلين في هذه الحامية الصغيرة، فبدأت معنوياتهم المرتفعة تنهار شيئًا فشيئًا، لظنِّهم أنَّها معركةٌ خاطفةٌ في طريقهم إلى المعركة المهمَّة، ليتفاجأوا بالمقاومة الشَّرسة ـ التي صفعتهم ـ من جنود حامية الكدرو الصغيرة، واستبسالهم اللامتناهي في أرض المعركة، رغم قِلَّتهم بالنِّسبة إلى مقاتلي جيش الأنج الجرار..

في اليوم الرابع لمعركة الكدرو الشَّرسة، وفي المساء؛ بدأ قائد الأنج رتاه في رفع معنويات مُقاتليه المنهارة، مُذكِّرًا إياهم بهدف أجدادهم الأولين، ومُعاناتهم في تلك البراري القاحلة، مُثمنًا بسالتهم في الحروب، التي خاضوها منذ غزوهم لأول بلدة في ولاية التكاكي، فقطفوا لذة ثمارها في انتصاراتهم المتتالية، فدانت لهم مقاطعة القسم الشَّمالي لألوديا بالكامل، فطلب منهم ضرورة أن يتحلَّوا بالصَّبر الجميل، حتى يحققوا هدفهم المرجو، فقال لهم:

ـ إنَّ ما تبقى لنا، فقط الأمتار الأخيرة لتحقيق الحلم الذى سكن في مخيلتنا مُنذ عهود ودهور..

عندما أقبل الصَّباح، كان جيش الأنج قد تغيرت حالته كليًا، وارتفعت معنويات المقاتلين كثيرًا، بفضل كلمات قائدهم، فثبتوا في ساحة الحرب كما هي عادتهم في النزال، ليلقنوا عدوهم درسًا لن ينساه ـ ما دام حيًا ـ في المهارات الأساسية لفن القتال. على الجانب الآخر، كان مقاتلو الجيش الألودي أكثر إصرارًا على القتال، والدِّفاع عن أراضيهم بقوة الشكيمة والصريمة، وكسر أنياب الأنج الحادة، فتقدَّموا إلى ساحة الحرب بقيادة سوكرتي حامية الكدرو، مُندفعين كموج البحر الجارف..

استمر القتال في هذا اليوم البطولي، ما بين شدٍ وجذبٍ، في معركةٍ حامية الوطيس، فلم يكن بها منتصر يتعالى بغروره على الآخر، ولم يكن بها مهزوم يجر أذيال الخيبة، فقبيل حلول الظَّلام بقليل، قرَّر سوكرتي حامية الكدرو الباسل، سحب مقاتليه من أرض المعركة، لينضم إلى جيش جلالة الملك المرابط على أبواب العاصمة سوبا، وفقًا لما كان مرسومًا لهذه المعركة. في صباح اليوم التَّالي، ظهر التَّعب، والأرق على وجوه مقاتلي الأنج، الذين خاضوا عددًا ليس بالقليل من المعارك القوية والدامية، التي تفصلها مسافاتٌ زمنيَّةٌ ومكانيَّةٌ مُتقاربة مع بعضها، إلا أن حلاوة انتصاراتهم السَّابقة، وقُرب موعد تحقيق هدفهم المنشود،

أعطى دفعةً معنويَّةً إضافية للجنود المتحمسين للقتال، فاصطفوا في صفوفٍ عديدةٍ خلف بعضها، ليستمعوا إلى حديث قائدهم الفذ رتاه في الخطبة الأخيرة، قُبيل المعركة الفاصلة، فزحفوا في ظهر اليوم نفسه صوب العاصمة الجميلة سوبا، على إيقاع ضرب النُّحاس، وأناشيد النَّصر القديمة والجديدة..

في اليوم الأخير، ما قبل اندلاع الشرارة الأولى لنار الحرب الفاصلة، انتشر عدد من مقاتلي الجيش الألودي، حول أسوار الجهة الشمالية والغربية للعاصمة سوبا الجميلة، وأغلقت أبواب المدينة تمامًا، في وجه أي طارق غريب مهما كانت صفته، فتمركز الجيش على أرض المعركة القادمة، على مسافة أربع عشرة ذراعًا شمال غرب المدينة، بقيادة جلالة الملك شخصيًا، فخطب في جيشه الخطبة الأخيرة قبيل وداع هذه المدينة الجميلة، فحدثهم بأهميَّة المعركة الفاصلة، لدحر الأنج الوثنيين، دفاعًا عن الأرض، والعرض، والدِّين، إذ إنَّها حرب بقاءٍ أو زوال. حدَّثهم عن مُعاناة أهلهم المريرة، في ولايات الشَّمال المحتلة، وأنَّ استرجاع بهاء وألق الماضي الجميل بين أيديهم الآن، ثم أنشد فيهم الوزير الأوَّل ـ وهو يتجول ذهابًا وإيابًا على ظهر حصانه، أمام صفوف المقاتلين الكثيرة والطويلة، وملوحًا بسيفه استعدادًا للقتال ـ

أنشودة النَّصر للكنداكة(1) العظيمة أمانجي شجيتو، فردَّدها الجنود بصُوتٍ جهور، حتى شرخوا سكون الكون الصامت، فارتفعت معنوياتهم حد السَّماء، فخاضوا الحرب المصيرية بشجاعةٍ لا مثيل لها، لا في البر ولا في البحر..

قدم جيش الأنج إلى تخوم العاصمة سوبا، قبيل اندلاع الحرب الفاصلة بيوم، منتصرًا في معركته الأخيرة، التي كاد أن يفقد فيها صوابه، وينهار معنويًا، وينهزم فعليًا، نتيجة لتلك المقاومة البطولية التي تلقاها من جنود حامية الكدرو الصغيرة، لولا حنكة القائد رتاه، التي أعادت الصواب لعقول المقاتلين، فرجحت كفة القتال لصالحهم. عسكر جيش الأنج الجرار، منذ لحظة وصوله على مشارف أبواب مدينة سوبا، على مسافة ست أذرع ـ في الغرب ـ من أرض المعركة، تحت شعار: نكون أو لا نكون، فنام الجنود بالتناوب، في تلك الليلة المليئة بالمخاطر والأماني الجميلة، مخافة من أي هجوم ليلي مفاجأ، فتضرب أعناقهم وتطاح رؤوسهم، فتدربك حساباتهم ويذهب تعبهم هباءً منثورًا. في الصباح الباكر ليوم المعركة، التي لا تقبل القسمة على اثنين، عم النشاط في معسكر الأنج، وعزف النحاس أناشيد

(1) كنداكة - الملكة و الاميرة .

النصر والحماس، فتقدم فرسان الالتحام أولًا، إلى ساحة المعركة يتبعهم رماة النبال والحراب، يعلو صراخهم. على الجانب الآخر للساحة، أخذ مقاتلو جيش الوديا من النبالة أماكنهم في الصفوف المثالية للمعركة، وعزف النحاس الملكي الأناشيد الملكية القتالية، فتقدمت فرقة المشاة نحو ساحة القتال يعلو تهليلها..

دارت رحى الحرب الفاصلة بين الجيشين ما بين كرٍ وفرٍ، نصرٍ وهزيمةٍ؛ فكانت مُجريات الحرب تتغيَّر فصولها في كُلِّ ساعة تقريبًا. يرى الأنج أنَّ حلمهم وحلم آبائهم الأولين على وشك الحدوث، فيصرخون ابتهاجًا بالنصر، قبل أن يجفل منهم هاربًا وقت الهزيمة. يُهلِّل الألوديون لدحرجة العدو خارج مجال الكورة الأرضية، قبل أن يدحرهم العدو إلى أبواب مدينتهم المحصنة. استمر القتال بهذه الحالة الدائرية طويلًا، دون أن يتمكن أحد الطرفين المتناحرين، من فرض أسلوبه في القتال، في هذه المعركة الدَّامية، والفاصلة في تاريخ البشريَّة، وتحوُّلها من عهدٍ إلى عهدٍ، من سيادةٍ إلى إبادة؛ كما الإنسان: يُولد هذا ويموت هذا في ذات المساء، أو كما الأرض التي تُحوِّل مجري النَّهر كُلَّ بضعة آلاف من السنين، إلى مجرى آخر وفي جهة أخرى، ربما يكون أبعد مسافة

من المجرى الأول، فيكون هناك واقع جديد للحياة، يظهر إلى الوجود على أنقاض مخلفات الحياة القديمة..

استمرت هذه المعركة المصيريَّة لمدة خمسة أيامٍ مُتتاليةٍ بهذا الشَّكل الحلزوني، ما بين نصرٍ وهزيمةٍ، فرح وحزَن، وفي اليوم السَّادس، ومنذ الصَّباح الباكر؛ دبَّ النَّشاط في معسكر الأنج بفضل الشُّحنات المعنويَّة الكثيفة، التي أعطيت للجيش، وسواكرة الحرب، من قبل القائد الفذ رتاه، ومساعديه الخمسة الكبار، فعلى حسب ما جاءتهم من معلومات استخبارية: بأنَّ كثيرًا من وزراء وسواكرة الجيش الألودي، قد ماتوا في غضون الخمسة أيام السَّابقة، وأنَّ هذا العامل قد ساهم كثيرًا في خلق حالة من الإحباط المعنوي لجنود العدو، فطلبوا منهم أن يستغلوا هذه الحالة لصالحهم، فهبط مُقاتلو الأنج ـ كالجراد المتعطِّش لالتهام سيقان الزَّرع ـ إلى أرض المعركة، فأكملوا انتصارهم الأوَّل بانتصارٍ آخرٍ فآخرٍ. وهكذا بدأ مقاتلو الجيش الألودي يتقهقرون ببطء، وبدأت الصُّفوف الأماميَّة تتساقط تدريجيًا، مما أعطى فرصةً ذهبية لمقاتلي جيش الأنج، للتَّوغل داخل صفوف جيش العدو، فكسروا شوكته، وفصلوا الوحدات عن بعضها، فمزقوها إربًا إربًا، فتهاوت الرايات العالية على أرض المعركة

تلونها الدماء الحارة، فآذنت شمس الحقيقة الساطعة بالغروب..

عندما أحسَّ الوزير الأوَّل بأنَّ أمر هزيمتهم بات على وشك الحدوث، طلب من جلالة الملك الرُّجوع معه إلى المدينة، لرسم خُطَّةٍ جديدةٍ، لعلها تغير مجريات الحرب لصالحهم، وليكونوا أكثر تركيزًا بعد أخذ قسطٍ من الرَّاحة. فعبروا صفوف جيشهم المهلهلة والمترنحة، وفتح لهم باب المدينة ـ الموصد ـ للمرة الأخيرة في تاريخه، فعندما وصلوا إلى بهو القصر الملكي، أخبر الوزير الأوَّل جلالة الملك بأنَّهم قد خسروا الحرب فعليًّا، وما هي إلَّا ساعاتٌ قلائل حتى يدخل مقاتلو الأنج بقيادة قائدهم رتاه، إلى المدينة الجميلة مُنتصرين، وأنَّ مُعظم سواكرة الجيش قد قُتلوا، وأنَّ معنويات المقاتلين ـ في أرض المعركة ـ في انهيارٍ مُستمر. بعد التَّشاور، كان الحل الأمثل والقرار المناسب في هذه اللحظة بالذات، هو هروب جلالة الملك وأسرته، وكل شخص قادر على الفرار معهم، إلى الجنوب من ولاية سوبا في الوقت الرَّاهن، حتى يتمكَّنوا من لملمة أطرافهم، والعودة مرَّةً ثانيةً إلى حضن مدينتهم الجميلة فاتحين ومنتصرين..

جمع الملك المكوي فؤاده بنار الهزيمة، وحاشيته المفزوعة من سيوف الأنج القاتلة، كُلَّ ما يلزمهم من أغراضٍ مهمةٍ، في

رحلتهم الطَّويلة، بما في ذلك كرسي العرش، وتاج الملك، وصولجانه، وراية المملكة التي ظلت ترفرف لسنين خلت، شامخة على سارية القصر الملكي، فخرجوا خلسةً من الباب الجنوبي الشرقي المحاذي للنهر، وشدُّوا رحالهم نحو الأفق البعيد، بينما كانت المعركة تحبس أنفاسها الأخيرة لمصلحة الأنج.

قُبيل غروب شمس مملكة الوديا المتوهجة بإشعاعات حضارتها المجيدة، مُنذ أن عرف الإنسان سرَّ زراعة اليانسون، وبعد ثلاثة ساعاتٍ ـ تقريبًا ـ من هروب جلالة الملك، وجماعته، خر الجيش الألودي مستسلمًا لصائده، فدخل قائد الجيش المنتصر إلى مضارب مدينتهم، في ذات يوم لم يكن فيه جلالة الملك المعظم يجلس كعادته في كرسي العرش..

كان كاتب الشُّونة يسمع أنين البعض، وهو لا يزال يروى الفصل الأخير من تلك الرِّوايات الموجودة في مُجلداته، التي تحكي عن انتصار الأنج الوثنيين على مملكة الوديا المسيحية، في تُخوم العاصمة سوبا الجميلة، فترقرقت عيناه بالدُّموع، فتنهد وهو يقول:

ـ فهربتُ أنا، وأسرتي، وجلالة الملك، وأحبتي من مدينة سوبا الجميلة إلى المجهول.

وبدأ يحكي لهم حكايتهم في أرض التِّيه، حتى وصل إلى تلك اللحظة، التي هو يتحدَّث فيها. تسمَّر الحاضرون في أماكنهم كأنَّما غشيهم نُعاسٌ يحمل معه طيف الماضي، فبكوا بكاءً بعويلٍ وصراخ، أفاقت ـ معه ـ جميع الحيوانات، والزَّواحف التي تقطن في هذا المكان الفسيح، ورُبَّما شاركتهم أونتي البكاء، وهي تُعلن عن موعد رحيلها، فبدأ الفجر يُظهر نوره من خلف الظلام، فطلب كاتب الشُّونة من المستمعين أن يأذنوا له بالانصراف، لما ناله من التَّعب، ولشعوره بأنَّ حباله الصَّوتيَّة قد تمزقت، فاتبعه كُلٌّ من كنكون، وأجيبوس في الطريق من وسط الزَّريبة، وإلى الخيمة، فسرح أجيبوس بفكره يتأمل ذلك الكم الهائل من المعلومات، التي سمعها في هذه الجلسة الخالدة، لعلها تفسر له الأمر الذي يُفكر فيه ويُراوده كثيرًا، وتجيبه إن كان زمن حدوثه بعيدًا أم قريبًا، في حياته أم بعد مماته، فتمنَّاه على أي حال أن يحدث سلميًا، دون أن تشتعل نيران الحرب الدينية مرة ثانية، وعلى هذه الأطروحة عقد العزم، فعندما عاد إلى واقعه شكر كاتب الشُّونة قائلًا له:

ـ إنَّ هذه الرِّوايات التي حدثتنا عنها، قد أضافت إلينا كثيرًا من الحقائق، كُنَّا نجهلها تمامًا، عن تاريخ الأجداد في الحقب الماضية.

فردَّ عليه كاتب الشُّونة قائلًا:

ـ يُسعدني أن يعلم النَّاس بهذه الحقائق الواقعية التي جرت لأجدادهم، لتكون مرآةً بالنِّسبة إليهم، حتى لا يُكرِّروا الأخطاء التي وقع فيها من سبقهم.

سر أجيبوس بهذا الرد البليغ من كاتب الشُّونة فقال:

ـ هذا هو بالضبط؛ ما يجعل أمر تداول قصص التاريخ بين الأجيال المختلفة، في غاية الأهمية، لاستخلاص العبر من تجارب الماضي من أجل حاضر ومستقبل جميل.

نظر كاتب الشُّونة أمامه يتأمل الطريق ثم قال:

ـ هذا ما جعل الحياة في سوبا هادئة ومستقرة، وعشتم معنا كمسلمين جنبًا إلى جنب في أمن وأمان.

فرد عليه أجيبوس قائلًا:

ـ صدقت يا صديقي، دائمًا ستكون العلاقات بيننا كمسلمين ومسيحين في حب ووئام، بفضل الحكم الرشيد، والحكماء من أمثالك.

شكر كاتب الشُّونة أجيبوس فقال:

ـ أتمنى في المستقبل القريب والبعيد، أن نستفيد من هذه العبر، ولا يزاد الطين بلة، وينشب اقتتال بين المسلمين والمسيحيين،

مثلما حاصل الآن مع أولئك الوثنيين.

أمسك أجيبوس بيد كاتب الشُّونة قائلًا له:

ـ لن يحدث هذا بمشيئة الرب، طول ما نحن نعلم أبناءنا حب الخير لجميع البشر.

كان كنكون سعيدًا بهذه السَّهرة الممتعة، وفي الوقت ذاته علم بنتيجة السُّؤال الذي طرحه من قبل لكاتب الشُّونة، ثم وجه إليه سُّؤالًا آخرً فقال:

ـ لماذا عندما يأتي ذكر اسمنا في حروبنا مع هؤلاء الأنج الأشرار كنتَ تقول الألوديين، فكان ينبغي عليك أن تقول نحن؟.

كان كاتب الشُّونة لديه وُدٌ خاصٌ لكنكون، فقال له:

ـ يجب على من يكتب التَّاريخ ألَّا ينحاز إلى جهةٍ ما، حتى لا يفقد التَّاريخ مصداقيته، فيقرأه دون تمييزٍ لعرقيته؛ وهكذا كنتُ أفعل.

رد كنكون المعجب كثيرًا بشخصية كاتب الشُّونة، ويعتبره أكثر الناس في هذه الدنيا علمًا ومعرفة، فقال:

ـ أنت أفضل من يدون أحداث التاريخ ويسردها، فلقد ذكرتني بتلك الليالي الدافئة، عندما كنا في سن الطفولة ونستمتع بسماع تلك القصص الجميلة عن أبطال غيروا مجرى التاريخ.

فرد عليه كاتب الشُّونة قائلًا:

ـ إذن في الجلسة القادمة سنستمع إلى ما تحفظه من تلك القصص البطولية يا قاص.

ثم أردف كاتب الشُّونة قائلًا:

ـ كل الحكايات الموجودة في مجلداتي وفي جدران الحيطان القديمة، موجودة في الحكايات الشعبية، فيسردها أهالينا كقصص بطولية تلهم خيال الصغار والكبار.

أمسك كنكون باليد الأخرى لكاتب الشُّونة وهو يترنح ويغني بصوت خافض ثم قال له:

ـ أعجبتني تلك التراتيل القديمة التي رتَّلها القدِّيس قرقي، بصوتٍ عالٍ على ذلك الدلوِ المملوءِ بالماء من النَّهر الخالد، وكيف أن الحاضرين ردَّدوا من خلفه تلك التراتيل بنغمةٍ سمفونيَّةٍ عذبة.

استحضر كاتب الشُّونة كلمات تلك التراتيل فقال:

ـ الله.. الله، على تلك التراتيل العذبة التي تجعل الحجر ينطق، وتروض التمساح الجائع، حقًا أنت فنان يا صديقي.

فزادت ترنحات كنكون، فشعر أنه وصل إلى قمة الطرب الداخلي فقال:

ـ إن الأناشيد المسيحية التي تنشد في الكنيسة، تشبه لحد كبير تلك الترانيم القديمة في الأداء والمضمون.

ابتسم كاتب الشُّونة فالتفت يمنةً ويسرةً فنظر إلى الاثنين اللذين يمسكان بيديه فقال:

ـ قديمًا كانت تنشد هذه الترانيم في المعابد النوبية إبَّان ديانة أنجي آمن وأجنا تون، فعندما تحول الكهان إلى قساوسة أخذوا معهم تلك الترانيم، وطوعوها بالكلمات التي تناسب دينهم الجديد وأنشدوها في الكنيسة.

ثم أردف قائلًا:

ـ فهذا التسامح الديني والروحي، لم يعجب كبار كهان الأنج وأتباعهم، ومن حينها أعلنوا الحرب على أولئك القساوسة، والتي ما زالت نيرانها مشتعلة حتى الآن بصور مختلفة.

عندما وصلوا إلى الخيمة، لحق بهم أبراهام المتعب، فقال لهم:

ـ لابُدَّ أن ننام الآن، لأنَّ يوم الغد سيكون يومًا شاقًا، وصلاة القُدَّاس ستكون حوالي السَّاعة الحادية عشرة صباحًا.

ردَّ عليه كنكون السعيد بصداقة ثلاثتهم قائلًا:

ـ هل هذا يعني أنَّ الدَّوريَّة التي ستخرج للبحث عن المكان، ستخرج عقب صلاة القُدَّاس؟

أجابه أبراهام وهو يستعد للنوم فقال:

ـ نعم! ستخرج بعد صلاة القُدَّاس، رُبَّما تكون هنالك وليمةٌ دسمةٌ عقب الصَّلاة، فتخرج الدَّوريَّة مُتأخرةً قليلًا عن الزمن المحدد لها من قبل.

ردَّ كنكون:

ـ هذا جيد!

وأردف قائلًا:

ـ فسأنام في وقت صلاة القُدَّاس إذن، على أن أفيق ساعة الوليمة.

فقال له أبراهام وهو يفتح عينًا ويغمض عينًا:

ـ وأنت في نومتك هذه كيف ستعلم بوقت الوليمة، أم سيأتي طائر البوم إلى الخيمة ويخبرك.

فرد عليه كنكون ضاحكًا فقال:

ـ لا يا شاطر، سأكون معكم في خيمة الصلاة وأجلس جانبًا وأنام، وعندما تنشدون حاولوا أن تقلدوا من أخذتم منهم هذه الأناشيد بصورة جيدة.

ابتسم أبراهام فرد قائلًا:

ـ يبدو أنك تتلمذ جيدًا على يد كاتب الشُّونة، إيه رأيك تأتي

أنت وتنشد لنا تلك الأناشيد الخالدة التي تحفظها.

فرد عليه كنكون بعد أن أنشد بعض الآبيات من تلك التراتيل القديمة فقال:

ـ هذا يسعدني أن أتعلم من كاتب الشُّونة ما هو قديم وما هو جديد، فأنتم كذلك تعلمتم من أجدادكم الكهنة سر الترانيم القديمة فقلتم لنا إنها تراتيل جديدة.

فقال له أبراهام المتعب:

ـ نَم الآن يا أيها العارف بسر التجارة والكهنوت، وكذلك غدًا وقت الصلاة، واصحُ كما يحلو لك.

رد كنكون والنعاس قد تمكن منه فقال:

ـ حسنًا يا صديقي، سأنام كما يحلو لي وأصحو وقت الوليمة وبهذا آخذ زمنًا كافيًا من الرَّاحة، وأكون مُستعدًا للخروج في الدَّوريَّة.

كان قد تم اختيار التَّاجر كنكون ليكون مسؤول التَّمويل ومشتريات الزَّريبة ضمن الدَّوريَّة التي ستخرج للبحث عن أيِّ قريةٍ أو مدينةٍ تكون سندًا لهم، وتعينهم على الوصول إلى بر الأمان.

16

لم يكن أحدٌ من الهاربين يعلم كم من المسافات قطعوا، ولا كم من الوقت قضوا في رحلتهم هذه، ولا يعلمون في أي الاتجاهات تقع هذه البقعة النَّائية من أسوار مدينتهم، لكنهم كانوا على ثقةٍ بأنَّ هذا الخور آتٍ من النَّهر، فخرجت ـ عقب تناولهم الوليمة الدسمة ـ من داخل الزَّريبة دوريةٌ تتكوَّن من خمسة جنودٍ، والتَّاجر كنكون، والحداد، ومزارعان كانت مُهمتها اكتشاف منطقةٍ سكنيَّةٍ تربطهم بهذا العالم الذي لا يتعدى حدود وادي النيل، وتمويل الزَّريبة بالمواد التَّموينية، والسِّلع الضَّرورية. تتبعت الدورية مجرى الخور، وعلى مسافة يوم كاملٍ من موقعهم، وجدوا قريةً صغيرةً تقع على حافة البحر تُدعى أسن نار، وهي في أقصى جنوب ولاية أربجي. طلب منهم أحد الجنود، وهو قائد الدَّورية، أن ينقسموا إلى فرقتين في تجوالهم داخل القرية، حتى لا يلفتوا انتباه سُكَّان القرية إليهم، وأن يبيتوا ليلتهم هذه

في العراء، على أن يدخلوا القرية صباح الغد..

وعندما حل الصباح بشوشًا، دخلت الفرقة الأولى أولًا، إلى أحياء القرية الواقعة على حافة البحر، بقيادة الجندي قائد الدَّورية، وكانت مُهمَّتها استخباراتية محضة، فقد كلفت بجمع المعلومات الكافية عن القرية، والحصول على آخر الأخبار، وعن التَّطورات التي حدثت في زمن تيههم الطويل في البريَّة، ثم لحقت بها بعد مسافة من الوقت الفرقة الثَّانية، بقيادة التَّاجر كنكون، فكانت مُهمَّتها البحث عن سوق القرية، لشراء المواد التموينية والسلع الضرورية التي يحتاجونها في الزَّريبة..

في منتصف النهار الزاهي لونه، لاحظ أحد مخبري الوالي وجوهًا غريبةً تتجوَّل في سوق القرية، فأخبر عمدة القرية بالأمر، والذي ـ بدوره ـ تحرَّك بدوريَّةٍ تتكوَّن من عشرة عساكر حراسة، يتبعهم المخبر بنفسه، فتمَّ القبض على الغرباء في الحال، فتجمهر الناس في السوق من حولهم، ليروا هؤلاء الغرباء التعساء، الذين أتت بهم الظروف إلى قرية أسن نار، ليساقوا إلى السجن والمصير المجهول، وتم اقتيادهم إلى منزل حضرة العمدة تحت الحراسة المشددة. علت نبرات الحزن والاكتئاب على تقاسيم وجوه المشتبه بهم، فخافوا على مصيرهم، ومصير أحبتهم المتواجدين

بالزريبة، وكذلك خافوا أن يقبض على رفاقهم في الفرقة الأولى من الدورية وتنكشف حقيقة أمرهم، فحدَّث كنكون نفسه قائلًا: «بعد كُل هذا العناء الذي عشناه مُنذ رحيلنا من سوبا، هكذا، وببساطة نقع فريسةً سهلةً في يد الأنج؟». فلا يعلم الإنسان ما تخفيه له الأقدار..

في منزل حضرة العمدة؛ أُجريت معهم التَّحقيقات الأولية، التي استمرت ساعتين وكذا من الدقائق، فلاحظ ـ خلالها ـ المخبر أنَّ معلومات هؤلاء الغرباء عن الأحداث الأخيرة، تكاد تكون معدومةً، فوجَّه إليهم سؤالًا مباشرًا: «هل الملك وأهله ما زالوا بخير؟»، لم يرد عليه أحدٌ من المشتبه بهم، لا بالنفي ولا بالإيجاب، فكان القرار الساري المفعول، الذي اتخذ مسبقًا من قبل الوزير الأول، أن يُضحوا بأنفسهم في حال داهمهم الخطر، على أن يتحرَّك أهل الزَّريبة بعد ثلاث ليالٍ من خروجهم؛ إذا لم يعودوا إليها سالمين. عندما لاحظ العمدة شكَّهم، وتردُّدهم في الإجابة ابتسم قائلًا:

ـ الأنج توقَّفوا عند سوبا الجميلة، ولم يتحركوا منها شبرًا، والوالي يبحث عن قافلة جلالة الملك مُنذ أن دخلت إلى ولاية أربجي، وهذا الشَّاب الذي عثر عليكم، هو أحد مخبري الوالي،

الذين يبحثون عنكم باستمرار.

بعد برهة من الصمت والسكون، دامت ما بين عشر دقائق أو يزيد، شحنت فيها المعنويات ـ التي كادت أن تتوه في بحر من الأحزان الجارفة ـ بفيض من مشاعر الأخوة النبيلة، فعانق كنكون المخبر والعمدة بقوةٍ، فتعانق الجميع بحرارةٍ، وزُرفت الدَّموع السخية..

في ديوان حضرة العمدة، جفت دَّموع القوم، وهدأت النفوس المتعبة، فتناول كنكون ورفاقه وجبة شهية، من شرائح لحم الضأن الجافة، والمعجونة مع أصابع البطاطا والخضار والتوابل، وحلوا بأطباق الكُشَاف(1) اللذيذة، وشربوا أكوابًا من مشروب القنقليز(2) البارد، فبعد أن امتلأت البطون ورويت الشرايين، طمأنوا أصحاب الضيافة بسلامة جلالة الملك المعظم، وأُسرته، وأفراد القافلة، وأخبروهم بأنَّ لديهم مجموعةً أُخرى تسير في طرقات القرية تبحث عن طوق النَّجاة، فتمَّ العثور عليهم وهُم يتجولون في أطراف القرية، يجمعون المعلومات الاستخباراتية، فذهب بهم إلى منزل حضرة العمدة، وأكرمهم كما أكرم السَّابقين.

---

(1) الكُشَاف – سلطة الفواكه مع ذبادى الفراولة و اللبن.

(2) القنقليز – حبيبات صغيرة تحملها ثمار شجرة التبلدي في جوفها ، وهي شجرة ذات جذع ضخم تنمو في اقليم السافانا .

عرض العمدة على كنكون ورفاقه، أن تسير قافلةٌ من الأهالي مُحمَّلةً بأطيب المأكولات، والمشروبات من القرية وحتى مقر إقامة جلالة الملك المعظم وأتباعه في الزَّريبة، ابتهاجًا بوصولهم إلى أطراف أسن نار آمنين، على أن تتقدَّمها فرقة نحاس القرية، تعزف على إيقاعات النحاس، أنغام الأناشيد الملكيَّة البطولية..

بعد أن استلم الأنج الوثنيون زمام الأمور في العاصمة سوبا الجميلة، وولايات المقاطعة الشِّمالية من مملكة الوديا المسيحية، فباتت تُعرف ـ فيما بعد ـ بدولة الأنج، لم يُفكِّروا في الزَّحف نحو الجنوب مُنذ الوهلة الأولى، ولا نحو الشَّرق أو الغرب أو الشَّمال، لانشغالهم بترسيخ دعائم سُلطتهم على تلك الرُّقعة الجغرافيَّة، التي سيطروا عليها بقوة السيف، فنُصِّب القائد رتاه وزيرًا أوَّل للدولة، وعُيِّن عددٌ من سواكرة الحرب، وزراء في مجلس شورى الدَّولة الوليدة، كما عُيِّن عددٌ آخرٌ من هؤلاء السَّواكرة حُكَّامًا على الأقاليم الأخرى..

تصاعد القلق ـ شيئًا فشيئًا ـ في نفوس النَّاس داخل الزَّريبة الملكية، وذلك بعد مرور فجر اليوم الثَّاني لخروج التَّاجر كنكون، والذين معه، للبحث عن أي خيطٍ يصل بهم إلى بر الأمان، فتتبعوا مجرى ذلك الخور المائي، الذي كان يأمل أن يُوصلهم ـ

نهاية المطاف ـ إلى قريةٍ لم تصل إليها يد الأنج بعد، على أن تكون لا تزال باقيةً تحت جناح جلالة ملك الوديا المعظَّم..

مرَّت السَّاعات الأولى من صباح اليوم الثَّالث بطيئةً، وثقيلةً على سُكَّان الزَّريبة لعدم ظهور أفراد الدَّوريَّة، فطلب الوزير الأوَّل من النَّاس تجهيز أمتعتهم، وأغراضهم إيذانًا بالرَّحيل، وقال:

ـ عصر هذا اليوم، سيتم تفكيك الزَّريبة، وستتحرك القافلة مع حلول المساء، على نفس تشكيلتها الأخيرة.

ثم أردف قائلًا وهو في حالة من الشرود الذهني:

ـ سنُصلي قبيل الرَّحيل صلاة القُدَّاس، والحمد، والشُّكر للرب على النَّجاة، كما سندعو الرَّب، ونتوسَّل إليه أن يحمي أولئك الشُّبان الذين خرجوا لخدمتنا، وألَّا يكون قد أصابهم مكروهٌ حتى الآن، وأن يجمعنا الرَّب بهم قريبًا، ونحن ننعم بالاستقرار.

حزن أونسة الخامس عشر بشدة لسماع هذه الأنباء المخيبة للآمال، وتمنى أن يعود هؤلاء الأبطال إلى الزَّريبة قبيل الموعد المحدَّد لرحيل القافلة. في تلك اللَّحظة العاصفة في تاريخ قافلتهم المليء بالزَّوابع والأعاصير، تذكَّر أونسة الخامس عشر صديقه الحميم كنكون، وروحه المرحة، التي خلقت جوًا من

الألفة، والبهجة بين أفراد المربع الرَّابع من مُقدمة القافلة في تلك الأيام الصَّعبة، فكان فاكهة الرحلة الطاعم، كما تذكَّر تلك الأغاني التي كان يُؤديها كنكون بصوته الحزين، والمخنوق معًا..

خرج كاتب الشَّونة يتمشَّى في أرجاء الزَّريبة لكي يُروِّح عن نفسه المخنوقة من ذاك الهم الذي ألمَّ به، في تلك اللَّحظة التي اقتربت فيها ساعة تفكيك الخيام التي بالزَّريبة استعدادًا لإخلاء المكان، فسمع مع الأهالي صوت إيقاعات النُّحاس، والأهازيج يدنو منهم من بعيد شيئًا فشيئًا، وفي لحظة خاطفة من الزمن تجمَّع سُكَّان الزَّريبة الملكية، لِمَا أصابهم من الهلع في وسطها، يحميهم الجنود البواسل، شاهرين سيوفهم، ورماحهم، والنبال، فاصطفوا في عدة صفوف، تفصلها مسافة عشر أذرع عن بعضها، استعدادًا للقتال فقد اقتربت ساعة المعركة الأخيرة بالنسبة إليهم، أمَّا الوزير الأوَّل، فقد بدأ يُخطط لقصة هروبٍ أُخرى للملك، وأسرته، والنِّساء، والشُّيوخ، والأطفال مع عددٍ من الجنود، لعل الحظ يبتسم لهم في المرَّة القادمة، لإحياء وهج مملكتهم من جديد.

اقتربت الإيقاعات والأهازيج أكثر فأكثر، فصاح أحد الجنود، المتمركزين أمام بوابة الزَّريبة، وهو يركض باتجاه وسط الزَّريبة

قائلًا: «الرَّب ينصرنا.. الرب ينصرنا. القادمون إلينا يتغنون باسم الملك المعظَّم في أهازيجهم، ويعزفون على إيقاعات النُّحاس، الألحان الملكية البطولية». فهاج النَّاس وماجوا، وباتوا يشعرون أنَّ رياحًا باردةً وساخنةً تهب عليهم من القبل الأربع، فمنهم من ركض باتجاه البوابة، ومنهم من ركض في الاتجاه المعاكس، ومنهم من اختلط عليه الأمر والتَّخمينات، فتسمَّر في مكانه كفريسةٍ استسلمت لقاتلها. وإذ هُم في هذه الحالة الفوضويَّة، وصلت قافلة الأهالي مُحمَّلةً بأطيب المأكولات، قادمةً من قرية أسن نار بقيادة عمدتها، يتقدَّمهم نحاس القرية، يعزف الأهازيج الملكيَّة، فاستقبلهم سُكَّان الزَّريبة الملكية بالزغاريد والبكاء، فامتزجت بين الفرقتين مشاعر الفرح، والحب الأخوي في لحظة عناقٍ دامت طويلًا..

انتقل خبر قافلة الملك، التي وُجدت في زريبةٍ بالقرب من قرية أسن نار، إلى والي أربجي، فكان مشغولًا ساعتها بأمر تأمين حدودهم الشَّمالية، وتجهيز الجيش للحرب، التي قد تشتعل نيرانها في أيِّ لحظة. وبدوره نقل الخبر إلى باقي الولايات، ومقاطعة كرسا في الجنوب. سافر حاكم أربجي، وحُكَّام الولايات الجنوبيَّة، والشَّرقيَّة، والغربيَّة إلى قرية أسن نار،

لمقابلة جلالة الملك، وأداء قسم الطَّاعة والولاء للملك المعظَّم، ومُعاهدته على الكفاح، وخوض المعارك الشرسة لاسترجاع العاصمة الجميلة سوبا، وإقليم التَّكاكي إلى حظيرة المملكة مرة ثانية. استقرت قافلة جلالة الملك وأتباعه في الأطراف الجنوبيَّة لقرية أسن نار، بعد فترة التَّيه الطَّويلة، التي قضوها في منطقة الوادي الأخضر، وسهول السَّافانا الغنيَّة، فتم بناء مقرٍ لجلالة للملك، وأتباعه في تلك القرية الصَّغيرة..

في ليلة من ليالي العام الميلادي، والنجوم ترقص طربًا وهي تلتف حول القمر المنير، جلس كاتب الشَّونة أونسة الخامس عشر في غرفته، التي بُنيت ضمن مقر إقامة جلالة الملك المعظم، في الطَّرف الجنوبي لقرية أسن نار، يُدّون كُلَّ تلك الوقائع التَّاريخيَّة في مذكراته، فيُرتبها، ويُرقمها باستمرار، ويُضيفها إلى تلك المجلدات الهائلة، التي كتبها كُتَّاب الشَّونة السَّابقون، مُنذ أن عرف الإنسان فن الكتابة والسَّرد، فكتبوا عن تلك الأحداث التي مرَّت بتاريخ وادي النِّيل، وشعبه الأصيل منذ القدم، وعلاقته مع الدُّول، والممالك، والشُّعوب الأخرى..

عندما أحسَّ أونسة بالإرهاق، خرج ـ كعادته ـ يتجوَّل في أطراف القرية، حاملًا معه بعض أوراقه، ثم ذهب إلى حجرة

العبادة ذات الشَّكل المستطيل، فالتقى بأصدقائه الثلاثة، الذين ارتبط بهم قلبيًا، منذ أن نشأت بينهم علاقاتٌ حميميةٌ، أثناء رحلتهم الطَّويلة من العاصمة سوبا الجميلة وإلى قرية أسن نار الصغيرة، فصلَّى هو والقس أبراهام، والتَّاجر كنكون صلاة القُدَّاس، بينما صلَّى على بعد عدة أشبار منهم، صاحبهم الآخر الشَّيخ أجيبوس صلاة المسلمين. بعد أن فرغوا من أداء فرائضهم، جلسوا يتناقشون في أمورهم الخاصة والعامة، فسأل أونسة صديقه كنكون قائلًا:

ـ حدثنا عن الأحداث التي جرت لكم في تلك الأيام، منذ أن خرجتم من الزريبة، وصولًا إلى القرية.

ضحك كنكون قائلًا:

ـ سأروي لكم الحدث المهم؛ إذ نحن نتجوَّل في سوق القرية، شكَّ أحد الجنود في أنَّ هناك شخصًا يُراقبنا، فأحسسنا بالخطر، وبدأنا نُفكِّر في كيفية الخروج من هذه الورطة.

قاطعه أبراهام دون أن ينظر إليه قائلًا:

ـ إيَّاكم أن تكونوا فكرتم في العودة إلى الزَّريبة مُباشرةً!.

ظهرت نبرة الغضب في حديث كنكون، فقال:

ـ بالطبع لا يُمكننا أن نُفكِّر بهذه الطَّريقة السَّخيفة، ونسحب

معنا العدو إلى معسكرنا.

عندما أيقن أبراهام أنَّ كنكون وصل إلى حد الخصومة في كلامه، شرح له أنه ما كان يعني هذا بسؤاله، فقال:

ـ هي مُجرَّد مُداعبةٍ لا أكثر ولا أقل. على العموم؛ أنا أعتذر عمَّا بدر مني، وأسحب سؤالي هذا.

تدخَّل أجيبوس ليلطف الأجواء التي بدأت تتكهرب بين صديقيه العزيزين قائلًا:

ـ لا داعي للاعتذار بما أن الأمر مُداعبة، فالحياة تحتمل الخطأ والصَّواب.

ثم طلب من كنكون المواصلة. بدوره اعتذر كنكون إلى أبراهام، وواصل يحكي... فقاطعه أونسة قائلًا:

ـ إن القديسين والتجار لديهم علاقة وطيدة بالمخازن والغلال، فهذا يجعل العلاقات بينهم ودية مهما حصل من سوء تفاهم بينهم.

فأردف قائلًا:

ـ سأقرأ لكم هذا النص الموجود معي الآن: «من كبير قساوسة مدينة أبريم سوتي ساري إلى حضرة القس أبارك ببلدة داس، أرجو منك أن توزع هذه الغلة الموجودة بمخزن كنيسة البلدة

ـ بشخصك ـ وهي كالآتي: أربعة أرادب من القمح ومثلها من البلح وثلاثة ملاوي من الذرة ومثلها من الشعير إلى راهب الكنيسة، والكمية نفسها من الغلة إلى راهبة الدير، صدر هذا بأمر من سيادتنا في زمن الأم نونين».

عندما أنهى أونسة قراءته للنص رد عليه كنكون قائلًا:

ـ القساوسة لديهم نوع آخر من التجارة، لكنها في آخر الأمر مربحة.

فواصل حديثه فقال:

ـ ثم لاحظ الجندي أنَّ من كان يُراقبنا قد اختفى عن الأنظار. اتفق الجميع على الهرب في الحال، ماعدا أنا؛ فكنتُ مُصرًّا على شراء بعض اللَّوازم الضَّرورية التي نحتاجها في الزريبة، فاستمررنا في التِّجوال دخل السُّوق دون اكتراث للمخاطر التي ستحدث، وفجأةً حاصرتنا عساكر العُمدة من الجهات الأربع، فذهبنا تحت الحراسة المشددة إلى منزل حضرة العُمدة، فأُجريت معنا التَّحقيقات المستفيضة.

قاطعه أونسة للمرة الثانية ضاحكًا فقال:

ـ إذن فأنت من تسبَّب في القبض على أفراد الدَّورية؟

فأجابه كنكون بعد أن تغيرت نبرات صوته مازحًا، فقال:

ـ نعم! بكل فخر، أنا هو ذلك المتسبِّب في هذا النعيم المتدفق علينا بالجملة.

فرد عليه أجيبوس وهو يكاد ينشق من الضحك قائلًا:

ـ إذن أنت المطر الذي هطل علينا وقت الجفاف فسقى تربة الوادي فنبتت فيه الفاكهة والخضر.

فرد كنكون والابتسامة لم تفارق شفتيه فقال:

ـ لا كذبًا كاذب، أنا حبيبات المياه المتبخِّرة من قدر الحساء الملكي والمتصاعدة إلى السَّماء.

للمرة الثالثة. قاطعه أونسة ضاحكًا فقال:

ـ فتنزل علينا ـ نحن الشعب ـ بركاتك يا سيدنا الولي.

لم يعلق كنكون على كلام أونسة واستطرد قائلًا:

ـ فلو كُنَّا هربنا من أوَّل وهلةٍ لكنا شككنا في أنَّهم جماعة من الأنج، مازالوا يبحثون عنا للفتك بنا، فكانت قافلتنا ستبدأ من جديدٍ في الدَّوران، وبفضل إصراري ـ حينها ـ على البقاء في السَّوق ننعم ـ الآن ـ بالرَّاحة.

أما إبراهام الذى أخفى ضحكته فظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه فقال:

ـ أهنأك يا كنكون على هذا التحليل المنطقي، فأنت يا صديقي

العزيز فعلت بالضبط كما فعل مشا عندما وجد أون تائهًا، فأسكنه في نتي التَّائهة؛ فبهذا أنت من جعل قافلتنا التائهة تسكن في هذه القرية الوادعة.

فرد عليه كنكون قائلًا:

ـ ينصر دينك يا أبراهام على هذا الإنصاف العادل يا أيها القس الجميل.

فواصل حديثه قائلًا:

ـ فبهذا يجب أن أُكرَّم تكريمًا يليق بالملوك، أو الوزير الأوَّل، أو أمين الخزانة، فهذا يكفيني أن أصبح أمينًا للخزانة.

ضحك الجميع، وقضوا ساعاتٍ طويلةً يتسامرون فيها، في جلسةٍ حميميَّةٍ، أصبحت تُعقد في كُلِّ أُمسيةٍ، كان ينضم إليهم أحيانًا الوزير الأوَّل، وأحيانًا أُخرى ينضم إليهم الملك نفسه..

رحلت طلائع جيش الأنج المنتصر، بقيادة قائدها الفذ رتاه إلى مسقط رأسهم، يتقدَّمهم النَّحاس البدوي يعزف أناشيد النَّصر، فتتراقص خيولهم غُنجًا ودلالًا في الطَّريق مبتهجة بحلاوة تلك الفتوحات، حتى وصلوا إلى مدينتهم، فاستقبلوا على أنغام الأهازيج، وزغاريد النِّساء، استقبالًا لم تشهده تلك البراري من قبل، فمكث الجيش خمسة أيامٍ بلياليها، جاب ـ فيها ـ كُلَّ

قرى البدو الأنج، وفي اليوم الأخير، تجمَّع الأهالي وسط المدينة في أجواءٍ احتفاليَّةٍ صاخبةٍ لتوديع أبنائهم وأحبتهم الرَّاحلين إلى سوبا، فأقسم القائد رتاه أمام جمع الأهالي المبتهجين بالنصر، أن يمتلكوا الشَّرق وموانيه الفخمة، والغرب وموارده الكثيرة، وأن يُدافعوا عن مكتسباتهم وأنفسهم في وجه أي عدو مهما قويت شوكته، بشراسة الأسد عندما ينقض على فريسته، وأن يُهاجموا دويلات الشمال المسلمة عندما تحين الفرصة لهم، وأن يغزوا كُلَّ الأرضي التي أسهمت في معاناتهم، ومُعاناة أجدادهم في ذات يوم ..

عادت طلائع جيش الأنج بقيادة القائد الفذ رتاه إلى سوبا، وهي مُحمَّلةٌ بشحناتٍ معنويَّةٍ جديدةٍ، بعد أن التقوا مُنذ زمنٍ طويلٍ بأهاليهم وأُحبتهم، وعاشوا معهم خمسة أيام مليئة بالاحتفالات الراقصة، والتبريكات والتهاني بفكهم طلاًسم الحلم القديم، فشعروا بقيمة انتصاراتهم المجيدة، وفتوحاتهم الباهرة، التي زادتهم ثقةً في امتلاك الكون بأسره، فسهر القائد رتاه ووزراؤه الخمسة في تنظيم شؤون الدَّولة الجديدة، وتثبيت أركانها، وخلق فلسفتها الخاصة في الحكم، وترسيخ تلك الفلسفة في نفوس الرَّعايا، مع العمل على توريثها للأجيال القادمة، كما عملوا على

تنظيم الجيش، والشُّرطة بصورةٍ جديدةٍ تماشيًا مع أهدافهم، ومُخططاتهم الرامية إلى تثبيت دعائم حكمهم لآلاف السنين القادمة، دون أن تهتز إلى أي عواصف ورياح عاتية، آتية لاقتلاع دولتهم من هذه الأرض، التي ورثوها بقوة الحديد والنار، في بضع سنين..

أمر القائد رتاه، بعد عامين ونيف من العمل الدَّؤوب، بالزحف نحو الشَّرق المشرق لإخضاعه، والسَّيطرة عليه، فانطلق مُقاتلو الأنج، بأشكالهم البدوية المخيفة، وسُرعتهم الفائقة في الانقضاض على عدوهم، كما النَّسر الجارح، باتجاه الشَّرق ففرَّ الحُكَّام، والولاة من بطشهم، وهرول الجند من سيوفهم، ورماحهم، وارتعب الأهالي خوفًا من مقابلتهم في الطرقات، فاستسلمت أمامهم المدن، والقرى في غضون عدة شهورٍ، فأصبحت كُلُّ ولايات الإقليم الشَّرقي تحت سيادتهم. ثم استولوا على أجزاءٍ واسعةٍ من جنوب دولة البجا، وامتلكوا عددًا مُقدَّرًا من الموانئ المتلألئة على ساحل البحر الأحمر، ووطدوا سيادتهم على تلك البقاع، وأعادوا تقسيماتها الإدارية على حسب فلسفتهم الجديدة التي تبنوها منهجًا لدولتهم، فعُيِّن أمراء حربهم حُكَّامًا على تلك الولايات المنضمة حديثًا إلى

دولتهم، فحكموها بقوة السلاح والجبروت، ونشروا مُقاتليهم في كُلِّ مكانٍ لحفظ الأمن، وإرعاب جميع خلق الله..

في تلك الأوقات، تشاور حاكم ولاية أربجي التابعة لمقاطعة سوبا الكبيرة، مع جلالة الملك، لاستغلال فرصة انشغال الأنج بحروب الشَّرق الشَّرسة، بغزوهم في العاصمة سوبا الجميلة لاسترجاعها إلى حضيرة المملكة مرَّةً أُخرى، رغم خطورة المغامرة وحساسية الموقف، في ردة فعل الأنج، إذا علموا بالأمر قبل وصول جيشهم إلى مدينة سوبا، والاستيلاء عليها. وافق الملك على هذه الحرب، لعلَّها تكون فاتحة خيرٍ لهم، وينصرهم فيها الرَّب على هؤلاء الوثنيين، فجهَّز الجيش من كُلِّ الولايات الألودية التي مازالت لم تخضع لسيطرة الأنج، وفي فجر فوش نوق(1) من شهر ميسري(1)، تحرَّك الجيش الألودي من مدينة أربجي بقيادة حاكم الولاية، صوب العاصمة سوبا، تتقدَّمهم فرقة نحاس الولاية، تعزف التَّرانيم الملكيَّة..

عندما علم القائد رتاه بتحرُّك الجيش الألودي نحو مدينة سوبا، التي أصبحت عاصمة دولة الأنج في ذلك الزمان، جهز جيشًا لا بأس به، من الجنود المتواجدين في حامية المدينة، وحاميات إقليم

(1) فوش نوق - يوم الثلاثاء .
(2) ميسري - 25/7 الى 23/8 .

التَّكاكي القريبة من العاصمة، وأرسل في طلب المدد من قادة الجيش في الشَّرق. خطَّط القائد رتاه أن تكون المعركة على مسافةٍ بعيدةٍ من العاصمة سوبا، وبذلك يكون لديهم الوقت الكافي، لأن تصلهم الإمدادات العسكرية من الشَّرق لحماية العاصمة، في حال انتصار الجيش الألودي، فتقدَّم جيش الأنج باتجاه الجيش الألودي، وعلى مسافة مائتي وأربعين ذراعًا جنوب العاصمة سوبا الجميلة، التقى الجيشان، فدارت بينهم معركة كرٍ وفرٍ، كان الجيش الألودي قاب قوسين من النَّصر، لولا الإمدادات الهائلة لجيوش الأنج التي أتت من الشَّرق، فحوَّلت كفَّة القتال لمصلحتهم، وانهزم الألوديون، الذين فرَّوا إلى الجنوب يُطاردهم الأنج حتى مدينة أربجي، التي عاثوا فيها فسادًا وتقتيلًا..

علم الملك بانتصار الأنج على جيشهم في المعركة، التي أقيمت جنوب العاصمة سوبا، بفضل الإمداد الهائل، الذي أتاهم من الشَّرق، ثم زحفهم على مدينة أربجي، فخرَّبوها تخريبًا، فخشي الملك على مصيرهم في الوجود، وأن يزحف عليهم جيش الأنج قبل أن تكون لديهم المقدرة الكافية لصدهم، فتحرَّك مع رعيته من قرية أسن نار، فاتجهوا صوب الجنوب، واستقروا في قريةٍ بالقُرب من مدينة فازوغلي، وبنوا فيها مقرًا لجلالة الملك،

وأتباعه، فكان الأصدقاء الأربعة كما هي عادتهم في قرية أسن نار، يجتمعون في غرفة العبادة المُستطيلة الشَّكل يتسامرون، ويتشاورون في أمرهم..

لم يُفكِّر قائد الأنج رتاه في ضم مدينة أربجي إلى دولتهم، واستقرار كتيبة من الجيش بها في الوقت الرَّاهن، لحكمةٍ يعلمها هو، فطلب من قائد الجيش أن يعود بجيشه إلى العاصمة سوبا فور انتهاء مهمته، وأمر بأن تكون المنطقة التي دارت بها المعركة الأخيرة، هي الأرض الحدودية الفاصلة بين دولتهم ومملكة ألوديا، على أن تكون هناك حامية عسكرية بالقرب من تلك المنطقة..

عاد جيش الأنج المنتصر إلى العاصمة سوبا بعد أسبوعين من انتهاء المعركة، فطاردوا من خلاله فلول الجيش المنهزم داخل منطقة الوادي الأخضر، فمروا على مدينة أربجي، فخرَّبوها ونكَّلوا بسادته، وحرقوا الحقول الخضراء، وحملوا منها الغنائم، كما أرعبوا سُكَّان القرى المجاورة للمدينة، وأرغموهم على دفع محاصيلهم النَّقديَّة مقابل سلامة قراهم من التدمير والإبادة..

بعد فترةٍ من الزَّمن، أرسل القائد رتاه حملاتٍ تأديبيَّةً باتجاه الجزء الشمالي للمملكة المجاورة لهم، لتخويفهم، وإرعابهم

وحثهم على عدم المخاطرة بأرواحهم وممتلكاتهم، وذلك يكون في عدم التَّفكير بغزو العاصمة سوبا نهائيًا، كما كان مقاتلي الأنج يصدون أحيانًا هجماتٍ صغيرةٍ بائسةٍ تأتيهم من بلدات ولاية أربجي، التي كانت تحاول باستمرار استغلال بعض هفوات العدو..

ظلَّ كاتب الشَّونة يُدوِّن تلك الأحداث، بشفافية مُؤرِّخ تاريخي مُحترف، لا بأيديولوجية الانتماء لفكرٍ يخص شعبه في كتابة التَّاريخ كما يحبون، وهو ورث وتعلَّم ذلك من والده، الذي تعلَّم ذلك من والده أيضًا، وهكذا مُنذ فجر التَّاريخ تعلَّموا تدوينه بصدقٍ، لأنَّ اللبنة الأولى لحضارتهم قامت على ثالوث الصِّدق والخير، الإنسان والنَّماء، الأرواح الطَّيبة والماء، وكان يُعلِّم ذلك لابنه جوناس..

شهدت تلك الفترة المضطربة من تاريخهم، بسبب حروب الكر والفر مع دولة الأنج، على الحدود الشمالية للمملكة، كثرة ترحالهم داخل الولاية الجنوبية لإقليم سوبا، وولايات إقليم كرسا، مما جعل بلاطهم الملكي مُتحرِّكًا بين مُدن وقرى الجنوب، بكُل حاشيته، والتَّنظيم البروتوكولي، والمعيشي فيه، ووسائل الاتصال بباقي المملكة، وكان يتم كُلُّ ذلك في مبانٍ

مُؤقتةٍ..

بعد انهزامهم في تلك المعركة، التي خاضوها مع الأنج، على بعد مائةٍ وخمسين ذراعًا تقريبًا شمال مدينة أربجي، والتي ماتت فيها أعداد كثيرة من الجنود، وكبار الشَّخصيات المهمة، وعلى رأسهم حاكم ولاية أربجي، الذي توفي بعد عدة أيام مُتأثرًا بجراحه، وأُسر فيها عددٌ من القوَّاد، الذين يُعول الملكً عليهم كثيرًا في حفظ النِّظام، وربط الولايات مع بعضها عسكريًا، رحلوا ـ بأمر الملك ـ إلى قرية تقع في نواحي مدينة فازوغلي، فسميت سوبا، واستقروا بها فترةً من الزَّمن، وبعد موت الملك، الذي خلفه ابنه الأكبر، انتقلوا إلى قريةٍ صغيرةٍ بالقُرب من جبل موية استقروا بها، وسمُّوها كذلك سوبا، على اسم عاصمتهم المعشوقة الجميلة سوبا، فبنوا فيها تلك المباني المؤقتة..

كما هي العادة، كان يجتمع أونسة الخامس عشر برفاقه الثَّلاثة الآخرين، في غرفة العبادة، التي دائمًا تُبنى في شكلٍ مُستطيل، كما كان ـ أحيانًا ـ يُنضم إليهم الوزير الأوَّل، وأحيانًا أُخرى ينضم إليهم الملك الجديد. كان الجو يميل إلى الدِّفء داخل غرفة العبادة، عندما دخل الوزير الأوَّل فحيا الجالسين، وجلس معهم، وبعد نصف ساعةٍ من النِّقاش، تناول الحاضرون وجبة العشاء

الدَّسمة التي أحضرها أجيبوس بمناسبة سبوع حفيده الأوَّل، وبعد فراغهم من الطَّعام؛ عادوا ـ مرَّة أُخرى ـ إلى جلستهم، واستمروا في نقاشهم، فسأل كنكون الوزير الأوَّل قائلًا له:

ـ الأيام والسنون تجري بنا، فبلغنا من العمر ما بلغنا، ومازلنا نترحل من قريةٍ إلى قرية. هل سنقضى ما تبقى لنا من العمر في هذا التِّرحال؟

أجابه الوزير الأوَّل، ونبرات الحزن تصبغ صوته:

ـ كنتُ آمل ـ بعد خروجنا من العاصمة سوبا الجميلة ـ أن نستقر سريعًا، ونُلملم أطرافنا، في وقتٍ وجيزٍ، لنغزوا الأنج بجيشٍ ضخم، ونقتلعهم من ديارنا، كما يُقتلع النَّبات المتعفن من الحقل المثمر، ولكن مشيئة الرَّب لم تُمكّننا من ذلك كما كُنَّا نأمل.

تحدَّث أبراهام عن نجاحهم حتى الآن في الحفاظ على وجود المملكة، ولو على ولايات الجنوب، والغرب فقط فقال:

ـ رُبَّما تتغيَّر تلك الظُّروف التي جعلت الأنج يسودون على أراضينا، وينصرنا الرَّب نصرًا عزيزًا، في ظل حُكم الملك الجديد.

كاد الوزير الأوَّل أن يبكي وهو يقول:

ـ كان الملك ـ قبل موته ـ يُحدثني عن الأحلام التي تأتيه في المنام،

فيرى انتصارنا، وعودتنا إلى محبوبتنا سوبا الجميلة، على إيقاع النُّحاس الملكي، وأهازيج الشَّعب الفرح بقدوم خريف أعيادنا الورديَّة، وزغاريد النِّساء المبتهجات بعودة أبنائهن، ليُزفوا إلى زوجاتهم في ليالي الأفراح القمريَّة.

حاول أونسة أن يُخفِّف على الوزير الأوَّل، فقال:

ـ ما أعظم الملك الرَّاحل، فقد كان يعشق مملكته حدَّ الجنون، وتفانى في خدمة شعبه حتى آخر أيام عمره.

ثم أردف قائلًا:

ـ هذه هي سُنَّة الحياة القصيرة، نُربي فيها أبناءنا ليرثونا.

رُبَّما يرث هذا الملك الحالي حلم أبيه فيحققه، ورُبَّما يرثه أحد أحفاده فيحققه. في كلا الحالين سيظل الملك الرَّاحل خالدًا في تاريخ الأمَّة، وستظل أنت الوزير الأوَّل، بطلًا من أبطال أمتنا العظيمة.

طلب أبراهام من كنكون أن يُغني لهم بمناسبة سبوع حفيد أجيبوس أغنيةً السُّبوع، والملك، على أن يتخذ هو من قدح الطَّعام الفارغ إيقاعًا، ويعزف عليه. غنَّى كنكون الأغنية التي يقول مطلعها «يا إلهي يا معبود، احفظ طفلي السَّعيد. سُبوعه كان يوم عيد، حياه الملك المجيد». ردَّد معه الحاضرون الأغنية

على إيقاع القدح الفارغ، وتصفيقهم، فتفرَّقت سحابة الحزن، التي علقت في سماء غرفة العبادة، ولأوَّل مرَّةٍ غنَّى كنكون ـ على غير العادة ـ بصوتٍ فخيم، أُطرب له الحاضرون، ورقص أجيبوس مع الوزير الأوَّل رقصة السبوع. لعب أونسة دور رئيس الكورس، وفي الوقت نفسه يملي كنكون، الذي لا يُجيد حفظ الأغاني، مطلع كُلِّ بيتٍ من الأغنية، فيُواصل كنكون في الغناء، كما لو كان مُغنيًا مُحترفًا، فتجمَّعت ندى الأحلام المستقبليَّة، فسقت نبات ليلتهم المخمليَّة..

بعد أن انتهت الأغنية التي ذكَّرتهم بليالي مدينتهم العامرة، وقبل أن يذهب كُلٌّ منهم إلى داره، سأل أجيبوس الجمع إن كان الطَّعام قد أعجبهم، فقال أبراهام:

ـ مُنذ زمنٍ بعيدٍ لم آكل طعامًا شهيًا مثل هذا الطَّعام.

إنَّه يُذكرني بلذة طعام الجدَّات الذي يرم العظم الهشوش، في مناسبات الأفراح القديمة.

فرد الوزير الأوَّل عليهما قائلًا:

ـ هو كذلك يا أبراهام. فلتتكرم يا أجيبوس بشكر نساء بيتكَ إنابة عنَّا.

أمَّا المغني كنكون فاقترح قائلًا:

ـ ما رأيكم أن نُقيم كُلَّ أسبوعٍ مُناسبةً ما، أُغني فيها أنا، ويأتي أجيبوس بالوليمة الدَّسمة؟

فرد عليه أجيبوس وهو يلملم الأواني الفارغة قائلًا:

ـ وهو كذلك يا صديقي، بشرط؛ أن تحفظ أنت الأغاني التي تؤديها.

فقال رئيس الكورس أونسة ضاحكًا:

ـ بسبب هذا الطَّعام الشَّهي غنَّى اليوم كنكون بهذا الطَّريقة الرَّائعة.

فضحك الجميع، وبهذه الرُّوح الأخويَّة الطَّيبة غادر كُلٌ منهم إلى داره، فكانت لكُل منهم حكايةٌ خاصةٌ مع الحياة، يعمل على تحقيقها لتشري حياة الجميع فيما بعد، وأخذ كُلٌ منهم يغرس في عياله ما يُحب هو أن يكونوا عليه في حياتهم المقبلة..

لم يكن للقس أبراهام زوجةٌ، ولا عيالٌ لكي يُعلِّمهم، ما تعلمه في حرم كاتدرائية العاصمة الجميلة، وفي الوقت نفسه، لم يكن يُعلِّم أبناء أُخته الوحيدة ما يكفي من تعاليم الدِّين المسيحي، حتى يخلفوه في مهامه الكنسيَّة، وكان ذلك بسبب انشغاله الدائم ـ في تلك الظُّروف الصَّعبة ـ بأمور الدَّولة الأُخرى، بينما كان الشَّيخ أجيبوس يُعلِّم أبناءه ذكورًا وإناثًا تعاليم الدِّين

الإسلامي، وكان ـ كذلك ـ يفعل التَّاجر كنكون في تعليم أبنائه الذُّكور، وخاصةً ابنه الأكبر ماكلينج مهارة التِّجارة..

في تلك الأيام، عانت مملكة النُّوبة المتحدة من حالة الفوضى الخلابة، نتيجةً لحروبها المستمرة مع دُويلات الشَّمال، فتقطَّعت أوصالها، وأصبح الإقليم الغربي لها يعيش في معزلٍ عن باقي المملكة، مما أتاح الفرصة للأنج لغزو الولايات الغربيَّة لمملكتي النوبة المتحدة والوديا في كُردفان، وجبال الميدوب، وجبال حرازة، وغيرها من المناطق، والسَّيطرة على أجزاء معتبرة من تلك الأراضي، وضمِّها إلى دولتهم، بعد عدة معاركٍ شرسةٍ خاضتها الأطراف المتناحرة في تلك الولايات..

في ذلك الزمان الذي شهد أحد التحولات السبعة الكبرى في تاريخ وادي النيل، أصبحت دولة الأنج بفضل الفتوحات الجديدة، واسعةً في رُقعتها الأرضيَّة، ومُترامية في أطرافها العريضة، حكمها وزراؤهم، وأمراؤهم بالقوَّة العسكريَّة، والبطش، والتَّرهيب، وطبَّقوا فلسفتهم الخاصة في إدارة الحكم، التي ورثوها عن قائدهم الرَّاحل رتاه، فقسَّموا الولاية الواحدة إلى بدناتٍ صغيرةٍ، وعشائر، حتى تسهل إدارتها، واستغلال مواردها بفرض الرُّسوم، والإتاوات، على العباد من سكانها.

وسُمِّيت كُلُّ واحدةٍ من هذه التَّقسيمات دار، تكون تابعةً لحاكم أو سيدٍ من الأنج لُقِّب بأرباب، أي الملك، أو الرَّئيس الأب، يكون مالكًا لكُلِّ الدار. يقوم بالسَّيطرة على فائض إنتاج السُّكَّان لمصلحة طبقة السَّادة الكبار من الأنج، ويُحدِّد لهم ـ هذا الأرباب ـ حجم الأراضي الزِّراعيَّة لكُلِّ عشيرةٍ، أو كيانٍ، وكميَّة المياه المستهلكة للزَّرع. كما لم يكن مسموحًا للأهالي التنقل بين تلك البدنات بدون تصريح مسبق للمرور، ولم يكن في مقدور الفرد الإقامة في الكيان المجاور لعشيرته دون إذن من الوزير الأول شخصيًا. فبهذا دانت لهم كل الأرض التي ملكوها بالطاعة والخنوع، ومن وقت لآخر كان يجرى تعديل لبعض القوانين، بالحذف أو الإضافة على حسب ما يرونه مناسبًا، مع سياستهم في وقتها، فلم يفكر الفأر أن يلعب بذيله مع هذه الإدارة الصارمة، التي نفذت القوانين بحذافيرها..

بمرور الزَّمن والأحداث، تناست الأجيال الجديدة للأنج، فكرتهم القديمة في القضاء على الكنيسة، والتَّخلُّص من الدِّين المسيحي نهائيًا، ولكنَّهم ـ في الوقت نفسه ـ لم يُوفِّروا لها الدَّعم المنوط بالحُكَّام، كقادةٍ، ورُعاةٍ للكنيسة كأسلافهم في الحكم، بل أهملوها تمامًا، كما لم يتركوا للمُجتمع المحلي فائضًا يُذكر

من الإنتاج لدعم هذه الكنائس على المستوى الشَّعبي، فعجزت كاتدرائيات سوبا الجميلة، والكنائس الكبيرة في المدن عن توفير احتياجاتها، وتنظيم شؤونها، بقيادة البطارقة، لاعتماد القساوسة، والرُّهبان الجدد، وتعميدهم، وإلحاقهم بالكنائس الأدنى، كما انقطعت الصِّلة بينهم وبين الدَّعم الكنسي من الخارج، فانهارت الكنيسة تدريجيًا.

17

كان جوناس يميل إلى الرَّسم، والنَّحت أكثر من ميله إلى التَّدوين والترقيم، فكان يجلس في أماكن كثيرة لوحده ولساعاتٍ طويلةٍ، ينقش على الحجارة الصماء، ويُشخبط في اللَّوحات الخشبيَّة. عندما سافر صديقه الوحيد التَّاجر ماكلينج إلى مدينة أربجي، لتنشيط تجارته بعد أن أصبح تاجر القرية الأكثر ثراءً، فوجد المدينة تحت سيطرة الأنج، وكان ذلك إبَّان حكم الوزير الأوَّل رانج، الذي انفتح على العالم الخارجي تجاريًا، عبر موانى البحر الأحمر، وعبر الطرق التجارية القديمة، فعادت إليها الحياة مرة أخرى، فازدهرت دولة الأنج ـ في وقت عظمتها ـ وانتعشت اقتصاديًا، واستقرت أمنيًا، فكانت جاذبةً لكُلِ من يبحث عن الأمن والأمان من مواطني دول الجوار المضطربة..

من مدينة أربجي توجَّه التَّاجر ماكلينح إلى العاصمة سوبا، يبحث عن بداية الخيط الذي سيدخل به إلى عالم التجارة في هذه

المدينة المترامية الأطراف، وفي خلال بحثه هذا تعرَّف على التَّاجر مناه، الذي أتى من مدينة دُنقلا عاصمة مملكة النوبة المتحدة، في منتصف زمنٍ الفوضى الخلابة التي عمَّت مملكتهم، فطاب به المقام بالعاصمة سوبا كمركز لتجارته، فكان يُسافر إلى موانى سواكن وعيذاب باستمرار، لتصدير بضاعته ـ من الجلود المزخرفة والصمغ الجاوي ـ التي يأتي به من أقاليم كردفان، والجبال، فكان كذلك يجلب معه ـ من تلك الموانى ـ القرنفل، والحرير الهندي، ليبيعها في الأسواق المحليَّة لمدينة سوبا، وغيرها من المدن، والقرى، وهكذا أصبحت تجارته تتسع ـ مع مرور الوقت ـ شيئًا فشيئًا. فشاركه في التِّجارة صديقه الجديد، التَّاجر الألودي ماكلينج، الذي تخصص في أنواع فريدة من المنتجات الغابية، فأصبح يُسافر إلى الجنوب، ليأتي بسن الفيل، وريش النَّعام، وجُلود الثَّعابين، والحيوانات المفترسة، فيُصدِّرها إلى الأسواق الخارجية، عبر موانى البحر الأحمر، ويُوزع جزءًا منها في الأسواق المحليَّة..

بعد فترةٍ من الزَّمن؛ عاد التَّاجر ماكلينج إلى مسقط رأسه بقرية سوبا الصَّغيرة، مُحمَّلًا بأفكاره الجديدة، وحكايات الأسفار بفوائدها السَّبع، وراح يحكي كُلَّ تلك الحكايات بخيرها

ومرها لصديقه العزيز جوناس، ويُعرِّفه برفيقه وشريكه في التجارة، التَّاجر المكوري مناه ذي الأخلاق العالية، والمعدن النَّبيل، فعلقت تلك الحكايات المشوقة في مخيلة جوناس، وقرَّر أن يرتحل ـ مع صديقه ماكلينج ـ نحو العاصمة سوبا، في رحلته القادمة، لعلَّه يجد سُوقًا يبيع فيها رُسوماته، ومنحوتاته، ويتعرَّف أكثر على ماضي أجداده في تلك البلاد، التي لم تعد كما كانت في السابق بلادًا لأجدادهم، فيرثوه هم كأحفاد شرعيين لأولئك الأسلاف العظام، ولكنها كانت تستقبلهم كتجار وحرفين ليسهموا في تطورها لا أكثر ..

سافر الصَّديقان العزيزان جوناس والتَّاجر ماكلينج نحو العاصمة سوبا، في ثاني يوم من فيضان النهر الأخضر، فالتقيا بالتَّاجر المكوري مناه، في محله التجاري الذي يقع بقلب عاصمة الأنج، النابض بالحياة الصاخبة والمحلات التجارية الكثيرة، فكان التَّاجر مناه عند حُسن ظن جوناس به، فنشأت بين الأصدقاء الثَّلاثة روابط صداقةٍ قويَّةٍ، امتدت لأزمان طويلة ربما تكون لآخر العمر، فطلب مناه من صديقه جوناس أن ينقش رسومات متنوعة على الفُخار، والأواني النُّحاسيَّة، ليتم تصديرها إلى الخارج، ويباع جزءٌ منها في الأسواق الدَّاخليَّة،

على أن يتكلف هو بالترويج وبيع هذه التحف الفنية، فكانت هذه هي البداية لتلك الأعمال الفنية الخالدة..

امتهن جوناس حرفة النقش على الفُخار والأواني النُّحاسيَّة، بتشجيع من صديقه الجديد التَّاجر مناه، بالإضافة إلى رسم اللَّوحاتِ التِّذكاريَّة للأماكن، والأشخاص، فرسم كاتدرائيَّة سوبا الجميلة، وهي عامرةٌ بالمصلين، كما كانت في عهد مملكة الوديا المسيحيَّة، ورسم السَّواقي الشَّامخة على ضفاف النَّهر، وكذلك رسم الحرب الطاحنة، التي دارت رحاها على أبواب مدينة سوبا، فأعلنت سقوط مملكتهم، وغروب شمسها الورديَّة عن خارطة الكون الحزين بفقدان إحدى أبهى حُلله الزُّمرديَّة على أيدي البدو الأنج. رسم مئات الوجوه لفقراء وأغنياء وشيوخ ونساء، وكذلك رسم صِبيةً وفتيات يركضون خلف حلم الحياة، فاشتهر بين الناس وفي كل بلدات الوادي العامر بجوناس الرَّسام..

في ذات مرَّةٍ وفي ذات يوم، طلب الوزير الأوَّل لدولة الأنج رانج من جوناس الرَّسام أن يرسمه، فرسم جوناس الوزير الأوَّل بعينيه الواسعتين كما البحر في هدوئه، ورسم أنفه التي تُشبه أنف الأيل الإفريقي، وشفتيه العريضتين، كما شط النَّهر

عندما يرسو فيه الطمي وقت الفيضان، فيخلق مساحةً عريضةً على جانبي النَّهر، تكون صالحةً للغرس، وعلى رأسه تاج الملك الفضي، ويتدلى ـ على صدره ـ عقد الهيكلي المرصَّع بالدُّر، والياقوت، ورموز السُّلطة من الدناقر، والشَّراتي، والمزامير، ويحمل في يده اليمنى سوط الأنج المقدَّس، وفي يده اليسرى يحمل سيفًا بتَّارًا داخل غمده المصنوع من جلد ثور البحيرات. تقف إلى جانبه الأيمن أربعٌ من الأرابيب، يُمثلون الجهات الأربعة لدولتهم، وعلى جانبه الأيسر يقف الوزراء السِّتة، يُمثلون السُّلطة المركزيَّة لدولتهم وجبروتها..

احتفظ الوزير الأوَّل رانج بهذه اللَّوحة، التي تُجسِّد الصُّورة الحقيقيَّة لواقع الوزير نفسه، وعلَّقها على الحائط المقابل للباب الرَّئيسي لبهو القصر الرئاسي، ذي الأعمدة الدَّائريَّة التي تحمل تيجان العرش، المعروش بالجريد والخشب النيلي، والجدران المبنيَّة من الحجر الجيري، المنقوشة بالجالوص النَّاعم، والمرصَّعة بالأحجار الكريمة، فشكلت اللَّوحة واقعًا جديدًا للقصر، الذي ورثه الأنج عن مملكة الوديا المسيحيَّة، في زمن تيه الملك وجماعته في مجاهل القارة السمراء..

كان الوزير الأوَّل رانج ـ مع اهتمامه بالنُّمو الاقتصادي،

والزراعي للبلاد، وتطوير الصِّناعات المحليَّة، وإنشاء المدن الصِّناعيَّة مثل مدينة كترانج الصِّناعيَّة وغيرها ـ مُهتمًا أيضًا بأمر الفن، والثَّقافة عمومًا على غير عادة الوزراء السابقين له في الحكم، فوجد المثقفون ضالتهم بعد فترة طويلة من الركوض الثقافي، الذي خيم على الدولة الوليدة منذ ولادته، فمارسوا أنشطتهم الثقافية والفنية في دور خاصة بذلك..

منذ أن أصبح جوناس رسامًا محترفًا ومشهورًا، جاب مُدنًا وقرىً كثيرةً يرسم فيها الحقول، والطَّبيعة، والعُمران، ووجوه الأبرياء من المزارعين، والصَّيادين، والعُمَّال، والجنود وهُم يُرعبون الأهالي من أجل زيادة الإنتاج، ومُلَّاك الإقطاعيَّات من السَّادة الأنج وهُم يجنون فائض هذا الإنتاج. كما رسم مُومياوات كثيرة لملوك وملكات وادي النَّيل السُّمر، وهُم يتوسَّدون الجريد المنسوج من سعف النَّخيل والدَّوم، الذي فُرش على الأنقر(1) الخشبي، الذي وُضع في سُرادق لولبيَّة تحت الأرض، لترقد تلك المومياوات ـ بجانب كنوزها، وزادها ـ رقدتها الأبديَّة إلى يوم البعث..

رسم النَّهر الخالد، واهب الحياة، بفروعه ومصبَّاته، وهي تجري

(1) أنقر، سرير.

في جميع الاتجاهات، ومن جميع الاتجاهات تجري صوب النَّهر. يُقال إنَّ لوحاته كانت تُسرَّب إلى خارج البلاد بأسعارٍ مُغريةٍ عن طريق بعض الرَّحالة، والتُّجار، وتُنسب إلى رسَّامين آخرين في تلك المدن والديار البعيدة، التي بدأت تفرد مساحاتٍ واسعةٍ للفنون، وتهتم بها. كان يتم ذلك بعد أن يُغيَّر توقيعه بتوقيع الرَّسام الذي تُنسب إليه اللَّوحة، فأصبحت كُلُّ بلاد الدُّنيا مفتونةً بلوحات جوناس بأسماء مُستعارةٍ لم تنل شرف زيارة تلك المناطق المرسومة في تلك اللَّوحات، بيد أن رسامين آخرين اقتبسوا من تلك الرُّسومات ما يروق لهم، وأضافوا إليها بعض الخرابيش، فنالوا من الشُّهرة ما نالوا، أمَّا جوناس؛ فلم يخطر كُلُّ ذلك بفكره، ولم يكن معنيًّا به بتاتًا، فكان كُلُّ الذي يشغله ـ في تلك الحقبة الصَّعبة من تاريخ حياتهم ـ أن يُتقن رُسوماته التي تُعبِّر عن حاضرهم، وماضيهم، ومُستقبلهم، ليلفت انتباه الأهالي لفعل شيءٍ من التَّغيير. لم يكن يدري متى سيحصل هذا التَّغيير المطلوب، ولكنَّه آمن بهذه الفكرة. آمن بأنَّ هذه هي رسالته إلى شعبه الطَّيب، فتعامل مع رسوماته بإخلاص..

عاد جوناس من رحلته الطَّويلة إلى بلدته سوبا الصَّغيرة، فوجد ابنه أونسة قد كبر، وترعرع، وتعلم الكثير من جدِّه

أونسة الخامس عشر، وقد بدأ يُدوِّن التَّاريخ كما لو كان كاتب شونة مُحترف، ويُساعد جدَّه في ترتيب وترقيم ما يكتب حديثًا، وتُضاف إلى تلك المجلدات العتيقة التي كُتبت في أزمنةٍ مُختلفة.

كان جوناس الرَّسام يُجالس والده وابنه في حديقة المنزل الصَّغيرة، ويروي لهم تفاصيل يومياته في العاصمة سوبا، وفي المدن، والقُرى الأُخرى، فحكى لهم ـ في ذات ليلة تجمعت فيها السحب حول القمر المنير ـ عن صداقته بالتَّاجر المكوري مناه، الذي ساعده كثيرًا في عمله، فكان له القدح المعلى في أن ينال هو هذه الشُّهرة التي ملأت أرجاء المعمورة، فحكى لهم في ذات الجلسة أنه كان يذهب كثيرًا مع صديقيه التَّاجرين: مناه، وماكلينج إلى بلدة قَرِّي ذات الكثافة السُّكانيَّة العالية من مهاجري مملكة النوبة المتحدة، وأن أغلب هؤلاء المهاجرين من المسلمين، وقِلَّةً منهم من المسيحيين، فكان يُجالس كبيرهم، وهو القاضي المسلم لقَرِّي الشَّيخ كانكيج، الذي انتقل من إقليم المهس بنواحي دُنقلا، ومعه نفرٌ من أبناء النوبة المتحدة في زمن الفوضى، التي حلَّت بمملكتهم، فانقسمت إلى ممالك، ودويلاتٍ صغيرةٍ مُسلمةٍ ومسيحيَّة، وبعض ممالكها الصَّغيرة خليطٌ بين المسلمين والمسيحيين، تُقاتل بعضها هجومًا ودفاعًا،

وكثُر فيها الهمباتة، وقُطَّاع الطُّرق تتخللها تدخلاتٌ لجنود المماليك الغُزاة، ينهبون ما تبقى للأهالي من محاصيل، ومؤنٍ باسم الدين..

في ليلة تجمعت السحب حول القمر المنير، وفي ذات الجلسة التي جمعت جوناس الرسام ووالده وابنه، نظر أونسة الخامس عشر نحو السحب بتمعنٍ، فحكى لهم حكمة المُلك القديمة ـ في وادي النهر ـ لتفادي التصدعات الداخلية للدولة، والتي جاءت على لسان العارف المسن بخفايا السياسة فيقول: «إن الأسر الشريفة العظيمة تتمتع بقوة هائلة، فلابد أن يتعامل معها بسياسة المهادنة والتعاون، أعلِ من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل الحاضرة، إن مدينتك ملأي بالشباب المدرب الذين هم في سن العشرين. ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك، على أن يكونوا مزودين بالأملاك وقد منحت لهم الحقول وجعلت في حيازتهم قطعان الماشية. والملك الخطير من كانت له حاشية».

يبدو من هذه الحكمة، أن ملوك النوبة المتحدة لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على رقعة المملكة الجغرافية الواسعة، في ظل حربهم الطويلة مع المماليك، وبالتالي لم يكن لديهم الوقت الكافي لتطبيق تلك الحكمة، فانفرط عقد المملكة تحت أيدي

الأشراف والأمراء فحكموا الأرضي التي بحوزتهم، لفقدانهم الثقة في أن يسير الملك بمفرده دفة الحكم، بعد فقدانه لرمزية السلطة المركزية والقوة، ليكون هو النبض الحي الذي يضخ الدماء باستمرار في دورة حياة المملكة، لتحيا من جديد وإلى أبد الآبدين..

في تلك الأيام التي شهدت الجلسات الأسرية الدافئة، بين أفراد أسرة أونسة الخامس عشر، كان جوناس الرسام يتجوَّل طوال النهار في قريتهم الصَّغيرة سوبا، ليرسم تلك المباني الطِّينيَّة ذات الطَّابق الواحد، والمساحات الضَّيقة، التي يتوسطها قصر الملك الفسيح، الذي بُني على نسق القرية المعماري، فترفرف على أعلى ساريته راية المملكة القديمة، وأمامه ساحةٌ صغيرةٌ يخطب فيها الملك مرَّةً كُلَّ شهر، فرسم جلالة الملك، وهو جالسٌ على كرسي العرش، يرتدي التَّاج الفضي، ويحمل الصَّولجان فى يده اليمنى، وفى يده اليُسرى آلة الحرب الألودية. تجلس على يمينه والدته الملكة الأم، يتدلى من صدرها تمثال الخنفساء الذَّهبي، الذي صُنع في عهد الكنداكة أمانجي شجيتو، وعلى يساره يجلس الوزير الأوَّل، يرتدي خوذة الحكمة على رأسه. رسم بسمة الأمل التي علت وجوه الأهالي بحلم العودة إلى محبوبتهم

الجميلة سوبا..

في تلك الليلة التي توفي فيها القس أبراهام، عن عمرٍ ناهز المائة عام، وبرحيله إلى الدار الآخرة دون أن يكون هناك من يخلفه في المهام الدينية، فقدت الديانة المسيحيَّة آخر معاقلها الحصينة، فبدأ إشعاعها يتلاشى من الحياة العامة للأهالي، وبدأت تنفك من البلاط الملكي كمُرشدٍ ديني لها، والبلاط الملكي كحامٍ، وداعم للكنيسة، فلم يجدْ عامة النَّاس ولا جلالة الملك من يُصلي بهم صلاة القُدَّاس، ولا من يُواظب على تعليمهم مبادئ الدِّين المسيحي، فأصبحت دار العبادة فارغةً إلَّا من تلك الأُسرة المسلمة، التي تُؤدي شعائرها بانتظام. رسم جوناس دار العبادة، وهذا التَّحوُّل الدِّيني البطيء..

في ذلك الشهر الذي كان يرسم فيه جوناس الرسام ملامح القرية الصغيرة، سافر التَّاجر ماكلينج في رحلةٍ تجاريَّةٍ إلى سهول وغابات أتمتي الشَّاسعة، التي تكسوها الخضرة، وأشجار السَّافانا الغنيَّة المتشابكة مع بعضها في شموخ، وتعجُّ بها حيوانات الغاب الإفريقيَّة، تركض خلف بعضها، تلعب تارةً، وتارةً أُخرى تركض من أجل البقاء. التقى التَّاجر ماكلينج بأصدقائه الصَّيادين، الذين يُورِّدون له جلود

الحيوانات المفترسة، وسن العاج، وقرن الكركدن، فطلب منهم زيادة الإنتاج، حتى يتمكَّنوا من تغطية حاجة الأسواق الخارجيَّة من هذه السِّلع النَّادرة، فأخبروه بصعوبة الأمر لحوجته لعدد كبير من الصَّيادين؛ وبالتَّالي هذا يجر عليهم الطَّامعين، الذين يُريدون أن يُصبحوا أغنياء في فترةٍ وجيزةٍ، فينهبون ثرواتهم في ليلة وصباحها، ولهذا يُفضلون عدم مُضاعفة الجهد والإنتاج.
ذهب التَّاجر ماكلينج مع أولئك الصَّيادين في إحدى مُغامراتهم الكثيرة للبحث عن الرِّزق في عُمق الغابة، فوجدوا مجموعةً من وحيد القرن، تقف حول بركة مياهٍ صغيرةٍ، فتربَّصوا بها لساعاتٍ طويلةٍ، حتى سرح أحدهم خارج المجموعة، فتتبعوه لمسافةٍ طويلةٍ، حتى أصبح بعيدًا ووحيدًا، فأحاطوا به، وهم يحملون الحراب والمطارق، فدارت بينهم معركةٌ غير مُتكافئةٍ استبسل فيها وحيد القرن، في دفاعه عن نفسه من أجل البقاء، فأصاب اثنين من الصَّيادين بجروحٍ بالغةٍ، وأصاب ـ أيضًا ـ التَّاجر ماكلينج بجروحٍ عميقة في جسده وكسرٍ في قدمه اليُسرى، قبل أن يسقط وحيد القرن على الأرض يتألم من طعنات الرِّماح القاتلة، ويصرخ صرخةً مُدويَّةً، كأنَّما يُريد إرسال إشارة تنبيهٍ بالخطر للمجموعة التي فارقها، وحثهم على

الَّتشرذم، حتى لا يلاقوا مصيره إن تفرقوا. مات وحيد القرن، ودماؤه تملأ جسده، وترتوي بها الأرض، فتقدَّم الصَّيادون نحو جسده الضَّخم، واقتلعوا قرنه الكبير، وتركوه فريسةً تلتهمها الطُّيور الجارحة، وديدان الأرض. في اليوم التَّالي لهذه الرِّحلة؛ اشتد الإعياء على التَّاجر ماكلينج، فطلب أن يُنقل إلى قرية سوبا الصَّغيرة، ليكون وسط أهله، ليشعر بالدِّفء والأمان..

وصل التَّاجر ماكلينج إلى سوبا الصَّغيرة بعد مرور شهرين وبضعة أيام من رحيل القس أبراهام، وهو يُعاني من آلام الجروح، والحمى، والهذيان، فتناوب على تمريضه كُلٌّ من زوجته، وصديقه جوناس، وعندما شحب جسده بسبب امتناعه المتواصل عن الأكل، كان يشرب شوربة الحمام، والخضار بالإغراء مرَّةً، ومَّرةً بالقوة، فكان يصحو لعدة مرات في اليوم من نومه مفجوعًا، ويهذي بكلام غير مفهوم، كأنه يتكلَّم بلغة النسانيس، وعندما يشعر بآلام الموت يصرخ صرخةً مُدوِّيةً، كما صرخة وحيد القرن، ثم ينتفض فيجلس في وسط السرير، عاريًا نصفه العلوي من اللحاف، وتتسارع دقات قلبه، فتدخل زوجته في نوبةٍ من البكاء والعويل لا تهدأ منها إلَّا عندما ينام زوجها مرَّةً أُخرى، فعندما يصحو من نومه ثانيةً، وعيناه

الشَّاردتان تحملقان في المجهول، يُغني فجأةً للورد والحب، ثم يبكي ويحكي حكايات أسفاره في المدن البعيدة..

في تلك اللحظات الحرجة التي عاشها التَّاجر ماكلينج، وهو يتلوى على فراش المرض من الألم، تناوب سكان القرية على زيارته للاطمئنان على صحته، بعد أن طال به الأمد وهو في هذه الحالة الصحية والنفسية السيئة، فقيل إنَّه مُصابٌ بالأرواح الشِّريرة، وبموت القس أبراهام، جاءه الشَّيخ العجوز أجيبوس ليقرأ عليه التحصينات، ضد كل الأشرار التي تتربص بالإنسان الطيب. كان الشَّيخ أجيبوس يقرأ عليه قليلًا من القرآن، الذي يحفظه، ويُكمل ما تبقى من التحصينات بقليلٍ من الإنجيل، والتَّرانيم القديمة، وهو مُمسكٌ برأس المريض فيهدأ قليلًا. هكذا تواصلت الجلسات العلاجيَّة، مع إعطاء المريض شوربة الحمام، والخضار السَّاخنة، فربطت على يده اليمنى تميمة من الطلاسم ضد الأرواح الشِّريرة، فبدأ المريض يستجيب ـ سريعًا ـ للعلاج، وبعد خمسة عشر يومًا بلغ المريض كامل الشِّفاء، فذُبحت الذَّبائح بهذه المناسبة، وأصبح الشَّيخ العجوز ينال احترامًا، وتقديرًا أكثر؛ فلفت الانتباه إلى دينه..

بعد أن بلغ المريض كمال الصحة والعافية، عاد الصَّديقان

العزيزان ـ جوناس الرَّسام، وماكلينج التَّاجر ـ إلى مكان عملهما في العاصمة سوبا، فانشغل كُلٌّ منهما بعمله، فكانا يلتقيان أحيانًا في دار القاضي كانكيج، ببلدة قَرِّي القريبة من العاصمة، وفي أحد تلك اللقاءات، التقوا ببعض الوافدين الجدد من المسلمين المكورين، فحكوا لهم عن تردي الأوضاع في مملكة النُّوبة المتحدة، وأنَّ الاقتتال بين الجماعات والدويلات المتناحرة على الثروة والهيمنة، على أكبر مساحة من الأرض، أصبح أكثر ضراوة، وأنَّ الوضع الاقتصادي أصبح لا يُطاق..

كان القاضي كانكيج من أوائل المهاجرين من إقليم المهس في النوبة المتحدة إلى دولة الأنج، فاستقر هو وجماعته في بادئ الأمر بمدينة مِروي، ثم بُولاق، قبل أن يرتحلوا، ويستقروا في بلدة قَرِّي، فتفرَّق أبناء مكوريا بعد ذلك الزمان على إقليمي سوبا، والأبواب، ومنهم من استقر في بلدة الكدرو القريبة من قَرِّي، ومنهم من طاب به المقام في جزيرة توتي، وبلدة العليفون، فكان كُلَّما أتى وافدون جُدد من المملكة النُّوبية المتحدة، استقروا في تلك المناطق، فأصبحوا يُشكِّلون ـ تدريجيًا ـ تجمعًا قويًا لا يُستهان به، فكان منهم القضاة، والكتبة، والإداريون، والتُّجار وغيرهم، وبالرغم من ذلك، لم يتمكنوا من إنشاء دور عبادةٍ

خاصةٍ بهم كمُسلمين، لأداء فرائضهم الدِّينيَّة، لأنَّ حُكَّام الأنج كانوا لا يسمحون بذلك..

في تلك الأيام الممطرة، كان الرُّعاة يتجوَّلون بمواشيهم الكثيرة في مراعي كُردفان الخضراء، ويقطعون عشرات الأميال ذهابًا وإيابًا بين أسواقها، قبل أن يلتقوا في سوق مدينة إمقل، ذات الزَّرائب الفسيحة، والمسالخ الضَّخمة، ومدابغ الجلود المنتشرة بداخل المدينة. وفي إحدى تلك المدابغ؛ جلس التَّاجر مناه، وبجانبه عددٌ من المنتجين، والحرفيين يتشاورون في عمل أشكالٍ، ورسوماتٍ جديدةٍ ومُختلفةٍ على الجلود، فكان الرَّأي الأخير الذي اتفقوا عليه هو إعادة الرُّسومات، والأشكال القديمة لمملكتهم؛ أي رسومات ما قبل المسيحيَّة، فبدأوا يتناقشون حول جمال تلك الرُّسومات، وتوغلها في حياتهم اليوميَّة، وأنَّ بعضها فيها أسرارٌ تُساعد البشر على المعرفة، وغيرها من مسائل تدبر الحياة. فقال أحدهم بأنَّ هناك كاهنًا من البرتي في نواحي الجبليين، يعرف كثيرًا عن هذه الأسرار، وأيضًا هناك الأمير الكاهن في تقلي، يحتفظ بالكثير من تلك الرُّسومات القديمة وأسرارها. على ذلك قرَّر التَّاجر مناه أن يزور أحد هذين الكاهنين في رحلته هذه، ليكتشف لاحقًا وبالصدفة أن

بإمكانه الولوج إلى تلك العوالم السحرية..

تحرَّك التَّاجر مناه بعد انقضاء موسم الأمطار باتجاه جبل البرتي، فمرَّ بمدينة تاجوة، ذات الحفائر الكثيرة وغابات أشجار الهشَّاب (1) المخضرة، فوجدها في حالة من الحيطة، والحذر، والتَّرقب لأمرٍ جلل. رشَّ الأهالي رماد النَّار أمام منازلهم، ومحلاتهم التِّجارية، وزرائبهم، وحدائقهم في شكل سورٍ أماميٍّ، مخافة قدوم كائنٍ ما. عندما سأل مناه عن هذا الأمر، رُويت له القصة التي تقولُ:

كانت هناك صبيَّةٌ يتيمةٌ تعيش في بيت خالها، فكانت الحياة تمضي بها من يوم إلى يوم دون أن تشعر بالوحدة والملل، فكان خالها يعاملها على أفضل حال، ولا يميزها عن سائر بناته في شيء، وعندما تسأله عن والديها، كان يجاوبها بأنهم سيعودان قريبًا من مدينة الأرواح الطيبة، وأحيانًا أخرى كان يجاوبها بأن العائلة بأكملها ستمضي يومًا ما لزيارتهم والاستقرار معهم في تلك المدينة الجميلة.

وكانت ترد عليه: بأنها لا تريد أن تفارق مدينة تاجوة التي تحبها كثيرًا، ولا تحب أن تترك زميلاتها من بنات الحي اللائي يقضين

(1) الهشَّاب شجرة صغيرة يصل طولها الى 8 أمتار توجد في افريقيا و تنتج ما يعرف بالصمغ الجاوي .

معها أوقاتًا ممتعة، ولكنها في الوقت نفسه في شوق وحنين لرؤية والديها، ورؤية مدينة الأرواح الطيبة، التي لا يعاني فيها الإنسان بتاتًا، فيجد كل ما يتمناه مما لذَّ وطاب. فلم يكن عقل تلك الصبيَّة اليتيمة التي لم تتجاوز سنها عمر الفراشات بعد، قادرًا على استيعاب مسألة الحياة والموت بتفاصيلها الكثيرة، ولا قادرًا على تحمل قساوة الدنيا والإنسان، في ظلم أخيه الإنسان في أشياء لا تستحق كل تلك القسوة والجبروت..

في أحد الأعياد الدينية اشترت زوجة خالها ملابس جديدة لبناتها الثَّلاث، ولم تشترِ لا ثوبًا ولا حتى حليًا من نواة اللألوب(1) لتلك الصبيَّة اليتيمة، التي عانت من غياب خالها في تلك اللحظة بالتحديد، لسفره إلى مدينة أخرى في مهمة تختص بعمله، فلم تجد القلب الحنون الذي دائمًا يأخذ بيديها في كل المناسبات. كانت تلك الصبيَّة اليتيمة تمتلك قطعة قماشٍ جميلةٍ، أهداها إليها والداها قبل وقت قليل من وفاتهما، فذهبت بها إلى الخيَّاط، لكي يُفصِّلها ويطرزها فستانًا تلبسه هي يوم العيد، ولم يكن معها مالٌ تدفعه للخيَّاط، الذي يحمل بين كتفيه العريضتين، قلبًا قاسيًا فطردها خارج المحل، فذهبت في

(1) اللألوب- شجرة كبيرة معمرة ، و ثمارها تشبه التمر اليابسة ، يصنع من نواة الثمار انواع من الحلى و السُّبحة.

الطُّرقات تبحث عن المال فلم تجد أحدًا يُساعدها، وعندما أقبل العيد السعيد ظلَّت تلبس ملابسها الرَّثة، بينما الفتيات ـ من جيلها ـ كُنَّ يلبسن ملابسهن الجديدة، فحزنت حُزنًا لم تعرفه من قبل، فاختبأت في غرفتها تبكي بشدةٍ حتى فارقت الحياة.

وبعد مرور عدَّة أيام بدأت تظهر كشبحٍ في الطُّرقات، وهي ترتدي تلك الملابس الرَّثة تسأل النَّاس عن المال؛ فإذا أعطيتها إياه تختفي، وإذا لم تعطها المال نظرت إليكَ نظرةً حادةً، تُصيبك بالهلع، لا يذهب عنك حتى تأتيكَ مرَّة أُخرى، وتُعطيها المال. كان ظهورها مع حلول المساء، فاختفى النَّاس ليلًا من الطُّرقات، وحبسوا أنفسهم في بيوتهم؛ فأصبحت المدينة ـ ليلًا ـ كما مدينة الأشباح.

كانت تطرق بقطعةٍ حديديَّةٍ على إناءٍ من حديدٍ، فيسمع النَّاس صوت طرقاتها مع هدير ريحٍ خفيفةٍ؛ فيرتعدون..

قيل إنَّ الخيَّاط كان يعمل ليلًا في دُكَّانه، فدخلت عليه في ذات ليلة، فطلبت منه ـ بصوتٍ حزينٍ ـ أن يخيط لها فستانًا جديدًا، وعندما رفع رأسه لينظر إليها، أُصابته بسهام عينيها الحادتين، واختفت، ومن حينها يبكي الخياط فجأةً، ثم يصرخ، ويُهرول مسرعًا في الشَّوارع نحو بيته، وهو يصيح: «أعطني قطعة

القماش لكي أخيط لكِ فستانًا جديدًا».

ولا يهدأ إلّا عندما يدخل غرفته، ويغلقها تمامًا. وفي ذات مساءٍ؛ دخلت إلى بيت خالها، ولم يكن هو موجودًا في البيت، فتوجهت إلى غرفته، فوجدت زوجته تتوسد السرير وتسرح شعرها وتدندن بالأغنيات، فسألتها بصوتٍ مُتقطعٍ: «أين فستاني الجديد؟»، فلم ترد عليها زوجة خالها، فرددتَ عليها السؤال مرة أخرى فأخرى، ثم نظرت إليها بسهام عينيها الحادتين، فما زالت زوجة خالها حتى اليوم لا تبارح غرفتها، وتأتيها نوباتٌ من الفزع والبكاء، وهي تُردِّد: «سأشتري لكِ يا ابنتي فستانًا من الحرير». قبل أن تنام يومًا كاملًا؛ فتهدأ.

وفي ليلة لم تُطُق لشدة ارتفاع درجة حرارتها، جلس أحد أغنياء المدينة في حديقة منزله، لعله يجد قليلًا من الهواء لينزل بردًا وسلامًا على جسده الذي يتصبب عرقًا، وكان هذا الرجل الغني قد نهر تلك الصبيَّة اليتيمة دون رحمة ولا شفقة، عندما طلبت منه أن يُعينها لتطرز فستان العيد. فجاءت إليه في جلسته تلك وهي ترتدي ملابسها الرثة فقالت له، وهي تبكي بصوت خافض: «أعطني مالًا كي أخيط به فستانًا جديدًا». وعندما حاول الرَّد عليها، صرخت في وجهه، وتطايرت سهام عينيها

نحوه، واختفت، ومن يومها لم يستطع الرَّجل الغني أن يتكلَّم، ويبكي دائمًا، وفي عينيه الدُّموع لساعاتٍ طويلةٍ..

وفي أثناء هذا الرُّعب القاتل من شبح الصَّبيَّة ذات سهام العينين الحادتين، وفستانها الجديد، أرسل عُمدة المدينة رسالة عاجلة للكاهن البرتي، لكي ينجدهم من هذا الخطر الذي يهدد حياتهم الجميلة. فكان بعض الأهالي يتحدثون همزًا وغمزًا، أن حضرة العمدة وبجلالة قدره، كان أكثر الناس رُّعبًا من شبح الصَّبيَّة الهائم في الطرقات، فكان يغلق أبواب ونوافذ داره بإحكام، حتى إن النسيم العليل لا يستطيع الدخول إليها. منذ أن هاجت بهائمه في الحظيرة فجأة، في تلك الليلة التي شهدت دوي الرعد دون توقف، فانطلقت تركض في شوارع المدينة لمدة ثلاثة أيام، تهاجم الناس كالكلاب المسعورة، فخيل للعمدة أن شبح الصَّبيَّة اليتيمة يحمله المسؤولية كاملة في موتها، فيريد أن ينتقم منه في شخصه وعياله وماله، بما أنه عمدة المدينة والمسؤول الأول عن رعيته..

عندما استلم الكاهن البرتي الرسالة وعلم بالقصَّة، ونسبةً لانشغاله ساعتها، أرسل رسالة إلى عمدة المدينة، يأمر فيها القوم بأن يقطعوا سيقان الطَّلح، والهشَّاب الخضراء، وأن يتركوها في

العراء حتى تنشف تحت وهج الشَّمس، وتصبح أعوادًا يابسة، ثم يحرقونها مع إضافة كمية مقدرة من اللبان الذكر في السَّاحة العامة، حتى يتطاير بخورها في فضاءات المدينة، ومن ثم يأخذون رمادها، ويرشونه أمام منازلهم، ومحلاتهم التِّجاريَّة، ومساكن حيواناتهم، وهكذا لا يستطيع شبح الصَّبيَّة ـ صاحبة الملابس الرَّثة ـ أن يلج إليهم، حتى يتفرَّغ هو من مشاغله، ويأتي إليهم. ومُنذ ذلك الحين ظلَّ شبح الصَّبيَّة الباكية يتجوَّل في طُرقات المدينة ليلًا، وهو يطرق بقطعة الحديد على الإناء الحديدي، فيعلو صوت الطَّرقات ببطء مصحوبًا بهدير ريحٍ خفيفةٍ، يُرعب النَّاس في بيوتهم..

كان في أطراف المدينة رجلٌ فقيرٌ، لديه عادة التبوَّل ليلًا في الخلاء القريب من مسكنه، وعندما جاءت هذه الأحداث التي منعت النَّاس من الخروج ليلًا، كان يحدثهم فيقول لهم: «عندما تكون صوت الطَّرقات خفيفًا، فهذا يعني أنَّ الشَّبح يسلك دروبًا أخرى في طرقات المدينة بعيدةً من موقعنا».

وفي ليلةٍ دافئةٍ كان صوت الطَّرقات يأتي إليهم مُتقطعًا، فأخبر الرجل الفقير نفسه بأنَّ الشَّبح يتمشَّى في الطَّرف الآخر من المدينة، فحمل إبريقه، وخرج إلى الخلاء لكي يتبوَّل كما هي عادته

قبل الأحداث، وعندما بدأ في التَّبوُّل ظهر له الشَّبح بسهام عينيه من بعيد، وبدأت الطَّرَقَات ترتفع شيئًا فشيئًا، فركض الرَّجل، وهو يتبوَّل، ويهذي بصوتٍ عالٍ، وشبح الصَّبيَّة ذات الملابس الرَّثة يركض من خلفه ويُنادي: «أين فستاني الجديد؟» فيرمي له بالمال، الذي يسقط داخل الإبريق؛ فيصدر صوتًا مُجلجلًا، يقفز على أثره الرَّجل، وتعلو صرخاته، فارتعب جيرانه عندما شاهدوا منظره بتلك الحالة المشفقة قبل أن يدخل إلى منزله، ومن ليلته تلك، أصبح الرَّجل المسكين يتبوَّل لا إراديًا، متبوعًا بصرخاتٍ وآهاتٍ، بينما كانت تنفق زوجته المال، الذي وُجد في الإبريق في إطعام الأطفال، وكسائهم..

عندما قدم كاهن البرتي إلى مدينة تاجوة، في ظل تلك الأحداث المرعبة، بطلبٍ من عُمدتها، كان التَّاجر مناه يتجوَّل في المدينة، ويتابع، ويسمع بتلك الأحداث، فكانت خير صدفةٍ أن يلتقى بالكاهن البرتي، ليُبرهن له ـ عمليًا ـ سر التَّعامل مع رسومات الماضي، كان لقاؤهما الأوَّل في منزل حضرة العُمدة. كتب الكاهن شو(1) خليطًا من الكلمات والأرقام، والرُّسومات القديمة، ثم لفَّها، وغلَّفها بجلد البقر الكاري، وأُعطيت

(1) شو ، كتاب ، قصاصات من الورق مكتوب عليها كلام أو احداث متسلسلة.

للأهالي البالغين، على أن يلبسوها في ذراعهم اليمنى لمدة ستة أشهر بالتمام والكمال، ثم طلب الكاهن من حضرة العمدة أن يجمع المال من أهالي المدينة المستطيعين، ليشتروا بها ملابس جديدةٍ، فيتم توزَّيعها على الصِّبية والصَّبايا المحتاجين، بعد أسبوع من قدوم كاهن البرتي ذُبحت الذَّبائح، وقُسِّمت على الفقراء والمساكين من الأهالي، ولبس الصِّبيَّة والصَّبايا من أبناء الفقراء والأغنياء ومتوسطي الدخل، ملابسهم الجديدة في يومٍ احتفاليٍّ ضخم برعاية عُمدة المدينة..

في اليوم الذي تلاه، ذُبحت عنزةٌ بجانب الصَّخرة المقدَّسة، التي تقع بالتَّل العالي، فحضر عيال المدينة بملابسهم الجديدة، بصحبة ذويهم والعمدة وسادة القوم والكاهن، فقُطع رمشٌ من رموش أعين كُل الصِّبيَّة والصَّبايا، وكُحلت بها أعينهم بكحل أسود، ثم غمست الرموش في دم العنزة المذبوحة، فرسم بها الصليب على جباههم والنجوم على خدودهم. فتحرك العيال على إيقاع الطبل يصحبهم الكبار نحو الجبانة، وهم يغنون أغاني الأعياد الدينية، حتى وصلوا إلى مقبرة الصَّبيَّة اليتيمة، فترحم كبار القوم على والديها، ودعوا لهم أن يتقبلهما الرب قبولًا حسنًا، وأنشد العيال على إيقاع الطبل أغنية حزينة، تتحدث عن طائر

الجنة الذي يطير بأجنحة الملائكة الكرام، فتمنوا منها أن تسامح سكان المدينة الذين ظلموها، وأنهم سيأتون لزيارتها في كل عام ليغنوا لها أغاني الأعياد الدينية، ثم وضعوا على مقبرتها فستانًا جديدًا اشتري بمال زوجة خالها العاكفة في غرفتها، والمصابة بنوباتٍ من الفزع والبكاء، وفستانًا آخر من قطعة القماش التي أهداها إليها والداها، فطرزه خياط الحي الذي يُهرول كالمجنون في الشَّوارع نحو بيته، ووضعوا أيضًا مبلغًا من المال، دفعه ذلك الغني الصامت الذي يبكي وفي عينيه الدُّموع لساعاتٍ طويلةٍ، ثم عادوا بعد ذلك إلى بيوتهم يرجون خيرًا من هذا الصنيع..

بعد مرور أسبوع، بدأت مدينة الأشباح المصابة بالهلع تعود إلى حياتها الطَّبيعيَّة في حذر وترقب. استمر صوت الطَّرق ليلًا، مع هدير الرِّيح الخفيفة، دون ظهور شبح الصَّبيَّة، وسهام عينيها الحادتين. فذبح عمدة المدينة عجلًا طريًا، ودعا الأهالي لوليمة عشاء على شرف كاهن البرتي، ولأول مرة منذ بداية تلك الأحداث، تحرك الناس في الشوارع ليلًا، فذهبوا إلى دار العمدة في تجمعات، وهم ينشدون الأغاني الدينية، وعادوا منها في التجمعات نفسها، وهم يحكون القصص البطولية. قبل أن يرتحل الكاهن البرتي، أخبر التَّاجر مناه بأنَّ سر كُلَّ الرُّموز

موجودٌ على ضفاف النَّهر الخالد، فودَّعه على أمل أن يلتقيا في يوم ما..

عاد التَّاجر مناه من مدينة تاجوة إلى إمقل، وهو سعيد بمعرفة الكاهن البرتي، الذي برهن له عمليًّا مقدرته الفائقة في التعامل مع الرموز القديمة، فأنهى المحنة التي عاشها أهالي مدينة تاجوة لشهور كثيرة. سافر التَّاجر مناه من مدينة إمقل إلى العاصمة سوبا، مُحمَّلًا بالجلود، والصَّمغ الجاوي، وعندما وصل إلى بلدة قَرِّي، كان الشَّيخ كانكيج قد فارق الحياة، قبل أن يُحقِّق حلمه، الذي لزمه منذ أن استقر في بلدة قَرِّي مُنذ ربع قرنٍ من الزَّمن تقريبًا، وهو بناء مسجدٍ جامعٍ للمُسلمين، يكون به دُور تعليم، وتحفيظ للقرآن الكريم، ولكنَّه تمكَّن من توطين أتباعه في عُمقِ دولة الأنج، ومكَّنهم من الوظائف الحساسة، والهامة في الدَّولة، مع ازديادٍ مُستمرٍ في عدد الذين يعتنقون الدِّين الإسلامي، في أوساط السكان المحليين لدولة الأنج. خلفه ابنه مهسن، كشيخ، ومُرشدٍ للمُسلمين في عموم دولة الأنج، وكان مهسن هذا فارسًا جسورًا ذا طموحٍ واسعٍ، مع تصميمه ـ بإصرار ـ على تحقيق حلم والده، والرَّعيل الأوَّل من المسلمين في بناء المسجد ولوازمه، واعتراف السلطات المحلية بالدِّين الإسلامي ولو على

بلدة قَرِّي..

في تلك الفترة، تُوفي الوزير الأوَّل لدولة الأنج رانج الحكيم، الذي اهتم كثيرًا بالتطور الاقتصادي والصناعي والثقافي، وأعطى للأهالي مساحات واسعة من الحرية، ساهمت في ازدهار دولة الأنج فبلغت القمة، في التقدم والسلام والأمن. خلف الوزير الحكيم رانج في الحكم وزيرٌ شرسٌ، كان همُّه الأوحد أن يُسيطر الأنج ـ بالقوة ـ على مفاصل الدَّولة، ومواردها، مما أسهم في تغيير سياسة الدَّولة، وعودة بطش الأنج مرَّةً أُخرى، الأمر الذي أدى إلى احتكاكاتٍ بين أمراء الأنج، والسُّكَّان.

خاتمة

في ظل ذلك الغموض الذي يكتنف الأحداث القادمة على دولة الأنج، سافر الأصدقاء الثَّلاثة: جوناس، ومناه، وماكلينج إلى قرية سوبا الصَّغيرة في أقاصي الصَّعيد، التي مازالت باقية تحت سيادة الملك الألودي، فوجدوا أنَّ حالها قد تبدَّل تمامًا بعد رحيل جيلٍ كاملٍ من المسنين، على رأسهم كاتب الشَّونة أونسة الخامس عشر، فخلَفه حفيده أونسة السادس عشر في تدوين الأحداث التَّاريخيَّة، وترتيب وترقيم المجلدات الضخمة. كما بدأت دار العبادة ذات الشَّكل المستطيل تشهد إقبال أعدادٍ مُتزايدةٍ من المسلمين الجدد، ومنهم عددٌ من الأمراء وأحفاد جلالة الملك، فبرغم من وجود الصَّليب داخل بهو المبنى، فلم تكن هناك صلاة قُدَّاس، ولا حتى نفرٌ من المسيحيين، ولا قسيسٌ يُرشدهم لتعاليم الدِّين المسيحي، فبعد وفاة القس أبراهام لم يكن ابن أخته الوحيدة قد تعلَّم تعاليم الدِّين إلَّا قليلًا، فعمل راعيًا للأغنام،

ثم أصبح عرَّافًا، ومُنجمًا للمطر، ودروب السَّفر الوعرة، وبما أنَّ الكثير من المهن كانت تُورث للأبناء، ومن ثم للأحفاد؛ فقد ورث أحد أبنائه ويدعى كولا مهنة الرَّعي والكهنوت، قبل أن ينتقل إلى الدار الآخرة..

بعد قدومهم من دولة الأنج، التي ينتظرها مصير غامض، استقر الأصدقاء الثَّلاثة بجانب ذويهم وأحبتهم، في قرية سوبا الصَّغيرة. في تلك الفترة ظلَّ جوناس الرسام يُعلِّم باستمرار حفيده جوناس الثَّاني مهارات الرَّسم والنَّحت، وكيفيَّة إتقانهما، فكانا يذهبان معًا إلى الحقول الخضراء والبساتين الوارفة، لكي يتمكَّن الشَّاب من رسم سيقان الزَّرع، وأوراقها، وثمارها، وينحت على لحاء الأشجار، والصخور مجسمات ثلاثية الأبعاد. أتقن جوناس الثَّاني عمل الزَّخارف، والأشكال الخشبيَّة، فاهتم بها أكثر من اهتمامه بالرَّسم، فكان ينحت، ويصنع مُجسماتٍ خشبيَّةٍ صغيرةٍ لمراكبٍ، وسُفنٍ، وزرافاتٍ، وأفيالٍ، وسيقان الزَّرع، وبيوتٍ، ومحلاتٍ تجارية، وأُناسٍ يحملون الثِّمار على القفة، وجنودٍ أشكالهم مُخيفةٌ، نصفهم آدميٌ، والنِّصف الآخر لوحشٍ كاسر. كان قد سمع بهم في قصص جدَّه الكثيرة في أسفاره، فصوَّرهم جوناس الشَّاب بتلك الهيئات المُخيفةِ،

فاشتهر بجوناس النَّحات..

أمَّا التَّاجر ماكلينج، فقد فتح محلًا تجاريًا في القرية، كان يُدرِّب فيه حفيده كورينا على فن التَّعامل التِّجاري، ويحكى له عن مغامراته التجارية في دولة الأنج. فحدثه في يوم كانا يحتسيان فيه مديدة الدخن الساخنة، عن الفرق ما بين أن تصبح تاجر جملة وتاجر قطاعي، فقال له: «على العموم، التجارة تحتاج إلى التخطيط السليم والمغامرة مع الصبر». بينما كان التَّاجر مناه، يخرج مع الرَّاعي الكاهن كولا، في رحلاته الخلويَّة لمعرفة أسرار الكهنوت، فحذَّره الرَّاعي كولا في الليلة الأولى لخروجهم، من الدُّخول إلى دهاليز هذا العالم الخفي، وما سيجره إليه من متاعب، ومصاعب، ولعنةٍ إن لم يكن في دمائه شيءٌ من الكهنوتيَّة. في الليلة التي طار فيها العصفور الصغير إلى عشه، حاملًا معه سنابل القمح، أخبر التَّاجر مناه الرَّاعي الكاهن بسره، وأن في دمائه شيئًا من الملكيَّة، وأنَّه وعددٌ من أُسرته الملكيَّة هربوا من نواحي المملكة النُّوبية المتحدة في زمن الفوضى، مع القس كانكيج، وأتباعه الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في ذات يوم، فاستقروا في دولة الأنج، وأنَّه على علمٍ بأنَّ أُسرة كانكيج كانت أُسرةً كهنوتيَّةً في قديم الزَّمن..

في الليلة التي حمل فيها العصفور الصغير، سنابل القمح إلى صغاره، وافق الرَّاعي الكاهن كولا على إعطاء التَّاجر الملكي مناه أسرار الكهنوتيَّة، فقال له محذرًا: «بأنَّ هنالك فرقًا بين الدِّماء الملكيَّة، والكهنوتيَّة، بعد انفصالهم إبَّان معركة الجبل المقدَّس، وأصبح لكُلٍ منهم أسراره المنفصلة والخاصة، فلابد أن تتعامل مع هذه الأسرار ككاهن، حتى يأتي ذلك اليوم الذي نتمناه»..

رغم تفاوت السِّن بين الصَّديقين الجديدين، إلَّا أنَّهما كانا يقضيان معًا أيامًا بلياليها، في البحث المضنى عن أسرار الكون الخفية، فيذهبان إلى البرية للتأمل في مخلوقات الرب القدوس، ويحاولان حل لغز اتحاد الكهنوتيَّة والملكيَّة، ثم انفصالهم وقت الطوفان، إلا أنهما استمرا في خدمة بعضهم البعض، بينما كان النَّهر الخالد ـ دائمًا ـ هو الذي يربطهما بحباله السِّريَّة..

فكر التَّاجر الملكي مناه أن يكون حفيده لار هو ذلك الملك القادم، والذي سيُعيد اتحاد الملكيَّة والكهنوتيَّة في دماءٍ واحدةٍ، ثم يُعيد مجدهم الضَّائع في زمن الفوضى، فبدأ يصطحب معه حفيده في بعض رحلاته الخلويَّة، ويحكى له قصصًا قديمة عن الكاهن والملك والوزير، والشعب الفرح بقدوم موسم الخريف، والنيل

سليل الفراديس يجري بهدوء من قديم الزمان نحو الشمال. لم يكن لار مُهتمًا بهذه الأمور كثيرًا، فقد كان مشغولًا بحب الأميرة ألتي ريناس الفاتنة حفيدة الملك الألودي، فكان يتحيَّن الفرص لرؤيتها، ويجلس لساعاتٍ طويلةٍ في مدخل الشَّارع المؤدى إلى القصر الملكي ينتظر طلَّتها البهية..

شعرت الأميرة ألتي ريناس الفاتنة، بهذا العاشق الوسيم والمجنون بحبها، فكانت تبتسم خجلًا عندما تمر من أمامه مع صديقاتها، ووصيفاتها. كان لار يجلس لمنتصف الليل مع صديقه الحميم كورينا، ليحكي له آلام عشقه اليتيم، فأرشده الأخير بأنَّهم لابُد أن يعملا مثل أجدادهما بمهنة التِّجارة، وأن يسافرا إلى تلك المدن البعيدة للحصول على الثَّروة، حتى يكون لار مُؤهلًا لكي يتقدَّم لخطبة محبوبته الأميرة ألتي ريناس الفاتنة، صاحبة القوام الممشوق، والخصر النَّحيل، وملامح وجهها الجميل الذي يشبه فاتنة معبد رمسيس كصورة للأصل فيجذبك إلى عالمها الطُّفولي كبداية حضارة وادي النِّيل..

في إحدى رحلات التَّاجر الملكي مناه، والرَّاعي الكاهن كولا إلى الخلاء، مرَّا بدرب الثُّعبان، لاصطياد أحد ثعابين الكوبرا القاتلة، في رحلة بحثهما المضنى عن أسرار الكون الخفية. مرَّت

ساعاتٌ حتى كاد النهار أن يمضي، دون أن ينجحا في مُهمتهما الشَّاقة، وعندما همَّا بالعودة إلى القرية؛ رأيا ثعبانًا صغيرًا يلوذ مُسرعًا إلى إحدى الحفر القريبة منهم، فاستبشرا خيرًا، وأتيا بدلوٍ مملوءٍ بالماء، وأدوات الصَّيد، فدفقا الماء من الدَّلو إلى داخل الحفرة بغزارةٍ، فخرج الثُّعبان الصَّغير من الحفرة طافحًا فوق الماء، وفي لحظة الإمساك به خرجت أنثى الكوبرا القاتلة، تُصدر فحيحًا مُرعبًا، ثم هجمت عليهما، وفي ثوانٍ معدودةٍ لدغت التَّاجر الملكي مناه في قدمه اليُسرى، لدغةً قاتلةً، ثم لاذت بابنها إلى داخل الحفرة مرَّةً أُخرى..

قرأ الرَّاعي الكاهن بعضًا من التَّعويذات على مكان اللَّدغة، ثم فصدها، فحاول إخراج قدرٍ من السُّم، ثم ربط القدم اليُسرى بقطعةٍ من القُماش الخشن، حتى لا يسري السُّم إلى داخل الجسد، فحمل الرَّاعي الكاهن صديقه التاجر الملكي إلى منزله. وفي الأيام التَّالية لم يستجب جسد مناه لكل العلاجات، والعقاقير، والقراءات، فارتفعت درجة حرارة جسده، وأصبحت الحمى فوق الوصف، فبدأ يترنم بالتَّرانيم الملكيَّة، ويحكى عن أمجادهم التَّليدة، وأنَّه الأمير مناه حفيد الملوك. ظنَّ الحاضرون أنَّ الحمى قد فعلت بعقله فعائلها، نتيجة لدرجة غليان الجسد من

الدَّاخل، بحيث يبدأ الإنسان في الهذيان، ودمج الأحلام الباطنيَّة مع الواقع، وقال البعض إنَّها لعنةٌ قديمةٌ طاردته في حياته، جعلته يحلم بأنَّه أميرٌ حفيدٌ للملوك، وأنَّه كاهنٌ ابن كاهن، فذهب يُطارد النُّجوم، مُنجمًا، فلدغته أنثى الكوبرا القاتلة، فقالوا: «يالها من لعنةٍ قويةٍ! ظلَّت خلفه من عام إلى عام حتى أصابته..».

كان الرَّاعي الكاهن يعرف أنَّ أقواله حقيقةٌ ظلَّت مكبوتةً داخله طوال هذه السِّنين، ربما نفثت أنثى الكوبرا سُمَّها في جسده، حتى يُعلن حقيقة نسبه للملأ، هكذا كان يُحدِّث الرَّاعي الكاهن كولا نفسه. ظلَّت الأمور على هذه الحالة طوال ليالٍ سبع، وفي الليلة الثَّامنة تُوفي التَّاجر الملكي مناه، بعد أن انخفضت درجات حرارة جسده، وبدأ يتأمل الحياة. تأثر التَّاجر ماكلينج كثيرًا لرحيل صديقه التَّاجر الملكي مناه، وبكى بكاءً بعويلٍ لعدة أيام، فكان يراه في المنام، وهو طريح الفراش يتألم آلام الموت، ويراه وأنثى الكوبرا تلدغه، ويرى جريان السُّم داخل جسده، فيرى التَّاجر ماكلينج وحيد القرن ينطحه بقرنه، ويحمله، ويلف به دورةً كاملةً في الفضاء، ثم يهوى هو على الأرض صريعًا، فينهض من نومه، وهو يصرخ، ويبكى بصوتٍ عالٍ، فعاد إليه ذلك الهذيان، وتلك الحمى اللعينة التي أصابته ذات يومٍ، في غابة

أتمتي..

فُجع صديقه جوناس بهذا الأمر، فظلَّ بجانبه طيلة الأيام التسعة التي مرض فيها، وفي ليلته الأخيرة كانت عيناه متورمتين من كُثرة البكاء، وهزل جسده من قلة الأكل، وكان كما التَّائه في العراء: يُحدِّق في سقف الغرفة، كأنَّما يُراقب النُّجوم، لكي تدله على طريق صديقه مناه. كانت الحمى تأتيه فجأةً، ثم تنخفض فجأةً، ويغني فجأةً للحب والورد. أصبح يُشاهد ـ وهو صاحٍ ـ ما كان يراه في المنام، فيبكي بصوتٍ خافض، وهو يُصدر صوتٍ حشرجةٍ من أنفه وحلقه، فازداد الأمر سوءًا، وفي إحدى نوبات الحمى القاسية فارق التَّاجر ماكلينج الحياة..

كان الرَّاعي الكاهن كولا يهتم بأمر الأمير لار حفيد مناه كثيرًا، فكان عندما يصطحب معه ابنه آباد، في رحلة الخروج إلى البرية، يصطحب معه الأمير لار كذلك، فنمت صداقةٌ متينةٌ بين أباد ولار. لم يهتم لار بأمر الكهنوت بتاتًا، فكان يقنص للغزلان، والأرانب البريَّة في تلك الرِّحلات، فيصطاد منها ما كان في مقدوره اصطياده. أمَّا أباد فكان يتعلَّم الكهنوتيَّة بسرعةٍ فائقة.

تبادل لار وأباد الزِّيارات العائليَّة فيما بعد، وفي إحدى تلك الزِّيارات تعرَّف أباد على كورينا، صديق لار الحميم، وهكذا

أصبح كُلٌ من لار وكورينا وأباد أصدقاء. كانوا يقضون الليالي معًا، يتسامرون، ويقصُّون القصص التي سمعوا بها من الأجداد، ويحكون عن الغد الآتي بتفاصيله الجميلة، ويروون مُغامراتهم اليوميَّة على بعضهم، فروى كورينا حكايات الغول وفاتنة القصر، وهو يمازح لار، فناده قائلًا:

ـ ياا أيها الأمير لار حفيد الأمير مناه ابن الملوك.

فضحك لار، قائلًا:

ـ أنا هو ذلك المدعو.

فضحك ثلاثتهم. واصل كورينا في حديثه، مُوجها كلامه إلى لار فقال:

ـ رُبَّما كان جدك ـ أيام انشغاله بعلم الكهنوت ـ علم بأنَّك ستقع في هذا العشق الممنوع، لهذا بادر بأن يُعالج الأمر قبل حدوثه، فادعى ذلك الادعاء القائل بأنَّ دماءه دماءٌ ملكيَّة، حتى يُمهد لك الطَّريق إلى دخول القصر الملكي، وطلب يد العصفورة الجميلة دون أي مشقَّة.

فضحك أباد حتى سقط على الأرض يتلوى، فتذكَّر تلك اللحظات الأخيرة لحياة التَّاجر مناه، فسأل كورينا قائلًا:

ـ ما هي قصة ذلك العشق الممنوع؟

نظر كورينا إلى لار فقال:

ـ أنا أطلب من الأمير لار أن يعطيني الأمان.

فقال له لار:

ـ إنَّ معزَّتك من معزَّة أباد، فقل ما شئت.

أكمل كورينا ما تبقى من حديث فقال:

ـ في يومٍ من الأيام؛ إذ كانت الأميرة الألوديَّة ألتي ريناس الفاتنة تهرب من الغول، إذا بالأمير المكوري لار يأتي على ظهر فرسٍ نوبي أصيل، فيخطفها، ويطير بها إلى قصر ممفيس الجميل.

ضحك الثَّلاثة حتى دمعت أعينهم، فعلم أباد بعشق لار للأميرة ألتي ريناس الفاتنة، فسأل لار قائلًا:

ـ منذ متى؟ وأنت تفطس بهذا العشق المستحيل.

فرد عليه كورينا فقال:

ـ منذ أن رآها في السوق، وهي تمشي الهوينا.

فقال أباد وهو يوجه سؤاله إلى كورينا:

ـ ولماذا لم تمنعه من هذا العشق الخرافي؟ ألا ترى حالة هذا المسكين عندما تأتي سيرتها؟!

فرد عليه كورينا قائلًا:

ـ حاولت معه في البداية، فأصبح يتربص بها في مدخل الشَّارع

المؤدى إلى القصر الملكي ينتظر طلَّتها البهية.

فضحك أباد فقال:

ـ إن الحب يصيب الإنسان بالجنون.

لم يكن لار معنى بحديثهم، ولن تكون هناك قوة على هذه الأرض قادرة على تحجيم مشاعره، تجاه محبوبته الفاتنة مهما كانت، فرد عليهما قائلًا:

ـ هل أنهيتم حديثكم الذي لا طعم له ولا رائحة.

فنظر الاثنان إلى بعضهما يضحكان، دون أن يصدرا صوتًا، فواصل لار حديثه فقال:

ـ شن علمكم أنتم بهذه الأحاسيس والمشاعر الراقية؟.

فرد عليه أباد فقال:

ـ أنا أعرف رائحة الفل والياسمين، والمانجو والبطيخ، وفي أسوأ الأحوال رائحة البخور.

فغمز كورينا نحو أباد فقال:

ـ شن عرف الرعية بالمشاعر الملكية، لينا الله وعيشت السوق.

فضحك أباد كعادته فقال:

ـ ملكية والناس أهالي، مالينا غيروا صاحب السمو العالي.

لم يخفِ لار ابتسامته فقال:

ـ سأشرح لكم ما لم تفهمونه يا عامة الشعب، بما أن قلوبكم لم تجرب أي نوع من الحب، حتى ولو كان حب البقرة التي تشربون منها الحليب.

ثم أردف قائلًا:

ـ يا جوز البنقز(1) أنتم هناك لغة يتحدث بها العشاق عصية على الفهم، وهي لغة العيون والابتسامة والإشارات هل مرت عليكم من قبل؟

فقال له كورينا وهو يهز كتفيه:

ـ يطرشني! لو سمعت بمثل هذا اللغة من قبل؟.

ثم وجه سؤالًا إلى أباد قائلًا:

ـ هل سمعت يا أباد بهذه اللغة من قبل؟.

رد عليه أباد فقال:

ـ ربما تكون هذه اللغة قريبة من اللغة التي تحدث بها سيدنا سليمان مع المخلوقات الأخرى والجن.

فرد عليه كورينا قائلًا:

ـ لا أظن! ولكن أعتقد أن سمو الأمير تأتيه أضغاث الأحلام في المنام، فيعتقد أن ذلك واقع ويبني عليه أشياء لم تحدث ولن

(1) البنقز - الة ايقاعية ، تصدر صوتين اساسين حاد و رخيم.

تحدث.

لم تختفِ ابتسامة لار من على محياه وهو يستمع إلى تلك الردود المحبطة، فقد كان يعرف أن صديقيه العزيزين يتمنيان له الخير، فيشكان بأن هذا الحب سيجلب له التعاسة في حياته، بما أن أميرات الأسرة الملكية لا يتزوجن خارج نطاق الأسرة بسهولة، فحاول هو من خلال هذه الجلسة أن يقنع صديقيه بشكل ما، للوقوف بجانبه حتى يتمكن هو من الدخول إلى عالم محبوبته الجميل، فقال لهم:

ـ عندما نتوقع النتائج السلبية قبل حدوثها، فهذا شعور محبط يجعلنا لا نفكر في الحل ولا نمضي إلى الأمام.

فرد عليه أباد فقال:

ـ هذا صحيح يا صديقي، فتكرار المحاولات هو الذي يجعلنا نصل إلى النتائج المرجوة.

فتحدث لار عن لغة الأحاسيس فقال:

ـ عندما تمر الأميرة الفاتنة بالقرب مني تبتسم بالرضا لانتظاري لها في ناصية الطريق، فتنظر إليَّ وعيناها تشعان ببريق الحب، تكاد أن تهمس في أذني بحبها لو لا الخجل الذي يجعلها تضطرب في مشيتها.

فرد عليه كورينا قائلًا:

ـ أتمنى يا صديقي أن يكون حدسك في محله، على العموم لا بد لك أن تجتهد لتحسين مكانتك في أوساط الأهالي، حتى تكون في مصاف الذين يتقدمون لخطبة الأميرة الفاتنة.

لم يكن الأمر سهلًا على كورينا في أن يقنع صديقه لار، بأن لا يؤمِّل كثيرًا على التخمينات الوردية في هذا الحب الشائك، بما أن الطرف الآخر لم يكن على باله تلك التفاصيل التي لم يسمع بها، فلهذا حاول إقناع صديقه بشتى الوسائل بأن يسافر معه إلى دولة الأنج، لعله في المدن البعيدة والمشاغل الجديدة ينسى هذا العشق المستحيل، بما أن البعيد من العين بعيد من القلب..

كان أكبر أحفاد الشَّيخ أجيبوس من الجيل الثَّاني شابًا، ورعًا، يُدعى أجيب، يُؤدي كُلَّ صلواته في دار العبادة، وكان يتعلَّم باستمرارٍ أصول دينه، رغم قلَّة مواردها في القرية، وكان من أقرب أصدقائه حفيد الملك، ويُدعى الأمير روديس. ففكَّر الشَّابان في السَّفر إلى سوبا الجميلة، بعد سماعهم بأنَّ بها عددًا كبيرًا من المسلمين، لعلَّهم يجدون في تلك الدِّيار من يُعلِّمه أصول الدِّين بعُمق.

علم كورينا ـ بالصدفة ـ بسفر هذين الشَّابين إلى العاصمة

سوبا، فقرَّر أن يرتحل معهم، فأخبر أصدقاءه بأمر السَّفر هذا، فقرَّر لار الانضمام إليهم. ارتحل الشَّباب الأربعة نحو العاصمة سوبا، في منتصف شهر ميسري الحار، وعندما وصلوا إلى العاصمة الجميلة، لم يكن لديهم فيها شخصٌ يعرفونه فيلجأون إليه، ليساعدهم في السكن والعمل والمهام التي أتوا من أجلها، ولم تكن العاصمة كما قريتهم الصغيرة، فكانت مدينة كبيرة تعج بالناس في الطرقات الواسعة والأزقة الضيقة، فأخذتهم الحيرة في أمرهم. في أثناء تلك الحيرة والشرود الذهني الذي ألم بهم، تذكر لار أن جدَّه مناه كانت لديه علاقة وطيدة مع قاضي بلدة قَرِّي، الواقعة على مشارف العاصمة سوبا من النواحي الشمالية، فاتجهوا إليها في ظهر اليوم نفسه، مع قافلة تنقل تجار البهائم والمواشي، فحطوا فيها رحالهم قبل حلول المساء، فالتقوا في ساحتها الكبيرة بعددٍ من أبناء النوبة المتحدة، فدلوهم على دار كبيرهم الشَّيخ مهسن، فأكرم نُزلهم، وقدَّم إليهم يد العون، فقد كان يُكنُّ لجدي لار وكورينا كُلَّ الاحترام، خاصةً الأمير التَّاجر مناه.

مكث الشَّباب الأربعة في بلدة قَرِّي لفترة من الزمن، يتقاسمون المسكن والخبز وضروريات الحياة الأخرى، فكان كل منهم

يعمل في مهنة مختلفة تمامًا عن الآخر، ولديه صداقات مع أناس مختلفين يقضي معهم بعض الأوقات الجميلة، فارتبطوا بهذه البلدة العامرة بالسكان الطيبين، وتلاشى لديهم شعور الإحساس بالغربة والبعد عن مسقط رأسهم. وفي دار الشَّيخ الجليل مهسن أسعف الحظ الصديقين لار وكورينا فتعرفا على مجموعة من التجار، كان لهم الفضل فيما بعد، بأن يتمكن الصديقان العزيزان من معرفة مداخل التجارة في دولة الأنج، أما أجيب وصديقه روديس فكانا يتابعان أخذ الدروس الدينية بنهم، فنالا إعجاب الشيخ الجليل كشباب مجتهد لمعرفة أصول الدين الإسلامي، فساعدهم في الترقي للمراتب العليا دينيًّا وعمليًّا. لم تكن بلدة قَرِّي منذ أن قدم إليها مواطنو مملكة النوبة المتحدة بمختلف أديانهم، واتخذوها موطنًا لهم بسبب الفوضى التي حلت بمملكتهم، تعاني من المشاكل والتناحر بين فئات المجتمع المختلفة، فكان الناس في هذه البلدة الجميلة يعيشون على مبدأ الاحترام والمواطنة..

بعد فترة من الزمان انتقل لار وصديقه العزيز كورينا إلى العاصمة سوبا، فعملا بالتِّجارة، بينما استقر أجيب ومعه الأمير روديس في بلدة قَرِّي، يتلقيان تعليمًا في الإدارة، ثم عملا لاحقًا

في القضاء. انقطعت الصلة بينهما وبين قرية سوبا الصغيرة تمامًا، فلا رسائل ولا زيارة كانت تشغلهم في تلك الفترة، فعاشوا في تلك المدن البعيدة كأصحاب ملك لا مستأجرين، وأخذتهم تلك المدن المزدحمة بتفاصيلها الوعرة، في دواماتها العاتية يبحرون مع التيار لا ضده، لم يكن لار ـ كما سبق ـ يتحدث طول الوقت عن محبوبته ألتي ريناس الفاتنة، ولم يكن صديقه العزيز كورينا مهتمًا بإقناعه ليترك هذا الحب المستحيل، نسى الأمير روديس أنه ابن أمير وحفيد للملك المعظم، فنسى أجيب أن ينده صديقه العزيز بالأمير تقديرًا واحترامًا. ربما تطبع هؤلاء الشَّباب بسلوك الوافدين إلى دولة الأنج فيتخذونها موطنًا لهم، وربما يعودون إلى قريتهم ـ كما أجدادهم ـ في ذات يوم ويجدون حالها قد تغير تمامًا، وفي تلك الحالة يكون التاجر لار هو الخاسر الإكبر، فالحياة تمضي بالإنسان من حالٍ إلى حال فلا تتوقف عند حال..

في تلك الليالي الشتوية الباردة لم يكن جوناس الرسام يشعر بطعم الحياة، كما كان يشعر بها في تلك الأيام الخوالد، بعد أن تقدَّمت به السِّن، ورحيل صديقيه العزيزين التاجرين: ماكلينج ومناه، وفي خلوته يتذكر الساعات الأخيرة قبل رحيلهما عن هذه الدنيا الفانية، فيبكي بشدة كما طفل تاه في الصحراء الكبرى

لسنين طويلة، ليتفاجأ في آخر المطاف بأن ملك الموت ينتظره على أعلى الربوة. لم يكن ينام كثيرًا ليلًا، ولا يحلم في منامه إلا بذات الأحلام التي حلم بها البارحة، فلا يناجي في واقعه اليومي إلا أصدقاءه الأعزاء، فكان ـ دائمًا ـ يشعر بالوحدة، والعجز، فيجلس في مرسمه لنهارٍ كاملٍ يُشخبط في القماش، مُحاولًا رسم لوحةٍ عن أسفارهم الأولى، وتلك الأيام المليئة بالحب، والعطاء التي مرَّت عليه مع أصدقائه وخاصة تلك الأيام التي قضوها في بلدة قَرِّي، وبرغم من اختلافهم في العقيدة الدينية، لم يشعر هو ولا أحد أصدقائه بأنهم مختلفون في شيء ما، ولم يكن هذا الاختلاف يعنيهم لا من بعيد ولا من قريب، فإن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان يربطها السلوك البشري المتحضر، المليء بالقيم والأخلاق الحميدة..

في ذات نهار مفعم بالنشاط والحيوية، كانت النَّوارس تستعد فيه للرَّحيل عن المكان إلى الضَّفة الأُخرى للعالم، في رحلتها الموسميَّة؛ في ذلك النَّهار الذي شعر فيه سكان القرية، بأن حدثًا مهمًا في انتظارهم، شهدت بساتين الزهور منذ الصباح الباكر، إقبالًا لا مثيل له من الزبائن، وفي منزل أونسة الخامس عشر، تأخر جوناس الرَّسام ـ في مرسمه ـ عن موعد تناول الطَّعام،

فدخل عليه حفيده جوناس النَّحات، ليُذكِّره بموعد تناول وجبة الغداء، فوجده واقفًا على ركبتيه مُبتسمًا، ومتكئًا على حامل اللَّوحة بيده اليسرى ورأسه، وممسكًا بريشته بيده اليمنى. صاح به حفيده، ثم هزَّه فسقط على الأرض دون حراك..

هكذا فارق جوناس الرَّسام الحياة، في ذلك النَّهار المفعم بالنشاط والحيوية، قبل أن يُكمل لوحة ذكرياته الجميلة، فبدأت معالمها تظهر في وجوه أصدقائه: مناه وماكلينج، يتوسَّطهما الشَّيخ الجليل كانكيج مُمسكًا بعصاه، كما ظهرت زُرقة السَّماء تُحلِّق فيها الطُّيور المهاجرة، والنَّاس تزرع في الحقول بجانب النَّهر، والبهائم تمرح في المراعي بجانب الحقول، وجنود أُمراء السادة الأنج يتربصون بالكُل..